



سلسلة
تحقق
إشتراكية
الثقافة



1985

علي مصطفى المصراتي



دراسة في الأدب الشعبي

المنشأة العامة للنشر والتوزيع والاعلان
طرابلس - الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية

بحا في ليبيا

كتاب الشعب

علي مصطفى المصراتي

جحا في ليبيا

دراسة في الأدب الشعبي

المنشأة العامة للنشر والتوزيع والاعلان
طرابلس ـ الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية

العدد 90 يونيو 1985

الطبعة الأولى
1958

الطبعة الثانية
1394و . ر ـ 1985م



الإهـــداء

إلى روح جحا الضاحك المرح
إلى جحا الفيلسوف الساخر
إلى جحا المسكين الذى تراكمت عليه الأقاويل .
إلى روحه الصابرة المرحة التى غذت الأدب الشعبى
بالروائع والبدائع .
أهدى كتابى المتواضع مع خالص الإعجاب .

المؤلف
على مصطفى المصراتى



حدثونا عن فكاهات جحا
فحسبناه غبياً مرحا
وزعمنا كل ما جاء به
هذراً نبغى لديه الفرحا
فإذا هذا الذى يضحكنا
فيلسوف جد فيما مزحا
وإذا كل حديث فكه
فيه للعاقل نصح وضحا

فريد عين شوكت

قد سمعنا عن جحا ما أترحا
وسمعنا عن جحا ما أفرحا
هل جحا كان جميلاً مرحا
أم جحا كان دميماً وقحا
كلنا سمع إلى نكتته
أينما أمسى وأنى أصبحا

أحمد قنابه

مقدمة

وهل لا بد من مقدمة لمثل هذا الكتاب الصغير . . ؟
قد يكون . . فلهذا الكتاب قصة . . كما أن لكل شىء في الحياة قصة وهل يهم القارىء أن أحدثه عن فكرة هذا البحث واختمار هذا الموضوع . . ومراحل هذا الكتاب . . حتى صار فى هذا القالب المطبوع . . ؟

القارىء صديق الكاتب . . ومن شيمة الأصدقاء أن يثرثروا عن أعمالهم . . ويتحدثوا عن ما صنعوه حديث الود والإخاء فقد كان هذا الموضوع ورقة فى سجن .

ثم محاضرة فى نادٍ .
ثم ها هو فى طور آخر كتاب بين يدى القارىء .

وذاتِ مساء من ليالى السجن فى « بورتا بنيتو »

بطرابلس منذ سنوات وقبل إعلان الاستقلال . . وحرية ليبيا كنت سجيناً مع أخلاط فى سجن عام وصنوف وألوان ويكثر السمر والحديث وراء القضبان والأسوار رغم صياح الحارس فى الردهات سلنسيو SILENZIO . . سكوتاً.

وأصغيت إلى قصص ونـوادر وقفشات من الأدب الشعبى وغنى الأدب الشعبى فى ليبيا بهذا التراث . .

وكانت أمسيات السجن فرصة لسماع هذا اللون من الأدب الشعبى . . أزجال . . ومواويل . . وقصص . . ونوادر وأمثال . . وكان أكثر ما استرعى انتباهى تصوير الأدب الشعبى لجحا وأمثال جحا أو كما ينطق فى لهجة ليبيا جحى .

والتقطت الأحاديث والأسمار والأمثال عن جحا في الأدب الشعبى الليبى وخفت عليها من الضياع . . والقلم وراء الأسوار ممنوع فدسست القلم فى دكة السروال . . وخبأت الورق فى « ترمس الشاى » والقهوة . . وبقلم الرصاص وبخط أشبه ما يكون « بالروشتات » سجلت جملة من الأمثال والقصص عن جحا كما يرسمه الأدب

الشعبى الليبى وعزمت على دراسة هذا اللون من الأدب الشعبى بعد إطلاق السراح والفراغ وخرجت . .

ومضت أسابيع . . وأشهر . . وسنوات ثمان . . ونسيت ورقة جحا وأحاديث جحا . . وأهملتها فى كومة من الأوراق أوراقى المهملة المكدسة . .

وفى عهد الاستقلال اشتغلت بدراسات وبحوث أخرى . . وفى مكتبى بالإذاعة فى الشهر الفائت . . صلصل التليفون:

. . . آلو رئيس النادى الثقافى بطرابلس .

. . . . مرحباً . . . سلامات

. . . . نريد محاضرة فى هذا الموسم وقد أعلن اسمك فى قائمة المحاضرين . .

وضحكت . . وقلت . . عن أى شىء يا ترى أنا في هذه الأيام أحاضر فى الأمثال والأدب الشعبى . . ماذا يكون الموضوع جحا فى ليبيا ؟ وكانت فكاهات وقفشات وظننت الموضوع مجرد مزحة . . . وإذ بالنادى الثقافى يعلن عن موضوع المحاضرة فى ذلك الأسبوع . . جحا

فى ليبيا . . وكنت أحسبها دعابة . . ومرغماً أخذت أفتش عن الورقة التائهة منذ سنوات ووجدت ابنتى الطفلة العابثة مزقتها إرباً . . وقرأتها بعد عناء . . وذهبت أقتنص النوادر والقفشات والمرويات عن جحا . . من أفواه الناس كالأصمعى . . غير أن الأصمعى كان فى البادية وأنا فى الشوارع والحارات والمجالس أبحث عن الأمثال والنوادر والأقاصيص التى تضاف إلى جحا حتى فى الخمارات مع أنى لا أشرب الخمر . . ولكن من أجل البحث عن أقوال جحا . . دخلت كل حارة وزقاق وحتى البارات . . والتقطت النادرة ولو من خمارة . . أو قعر زقاق . . ومن مجالس الشاى حتى ضممت مجموعة وأخذت أعرضها على محك الدراسة والنقـد الأدبى والمقارنة . . وكانت هذه الحصيلة موضوع المحاضرة التى ألقيت مساء الخميس 12 ديسمبر 1957 م .

وقالوا إن المحاضرة ناجحة . . والله أعلم بمقدار النجاح وكنت أظن أنى فرغت من حديث جحا وأمثاله وأقواله فى الأدب الشعبى بليبيا .

ولكن أمره معى لم ينته عند هذا الحد . . بل يلح بعض الأصدقاء من الأدباء على طبعها فى كتاب لئلا تضيع كما ضاعت الورقة الأولى .

وسألت نفسى . . هل تصلح المحاضرة وتكفى لكتاب مستقل ؟ وقالوا . . العبرة بالكيف لا بالكم . . فليكن شيئاً صغيراً وليس ولا بد أن يكون الكتاب حمل بعير . . نحن فى زمن الخفة والسرعة . . واضطررت إلى لقاء نظرة أخرى على الموضوع وأضفت بعض الأشياء . .

وطالت جولتى مع جحا فى الأدب الشعبى بليبيا ورغم انشغالى أو أشغالى بثلاث مطابع فى وقت واحد . . كتاب يطبع في بيروت . . وكتاب يطبع فى القاهرة . . وآخر فى طريقه إلى تونس . . وكتاب رابع بطرابلس . . رغم كل هذه الزحمة وانشغال الفكر والقلم . . فقد آثرت جحا وقدمته فى زحمة الأعمال . .

وهكذا أخذ طريقه إلى المطبعة ليكون بين يدى القارىء فى هذا الثوب .

ولا أزعم أن فى هذه الصفحات كل ما قيل عن جحا فى الأدب الشعبى بليبيا . . فإن ذلك لا تفى به محاضرة ولا يضمه كتاب صغير كهذا . . ولكنها لبنة فى أدبنا الشعبى تتلوها لبنات ، ومحاولة تتلوها محاولات ـ إن شاء الله ـ وأرجو أن أجد من القارىء العربى قبولاً فإنه مجهود على «قد الحال» . . ولندع القارىء يتجول مع جحا فى القصص والأمثال . .

طرابلس الغرب ـ ليبيا ـ يناير 1958

على مصطفى المصراتى

شعبية الأدب

مضى العصر الذي كان يعيش فيه الأدب «ارستقراطياً» فى أبراجه العاجية، يطل على الشعب من عل. . بل هو اليوم لا يعد أدباً صادقاً إلَّا إذا كان معبراً عن حياة الناس كل الناس. . مصوراً لحياتهم. . حياة الناس. . كل الناس في السوق والحقل فى المصنع والحارة والزقاق . . فى المدن والقرى وجوف الصحراء . . وشطوط البحار. . الأغنياء والفقراء وأهل الترف والصعاليك. . كل الطبقات مواد خام ومسرح ومنهم أبطال وخامات. . إنه الأدب الحى والفن الصادق يستقى من حياة كل الناس. . مادة خصبة للأدب والفن ينابيع . . ومستلهمات. . مشاعرهم. . أحاسيسهم. . معيشتهم آلامهم. . آمالهم. . معتقداتهم. . سبحات أحلامهم . .

شطحات خيالهم. . واقعيتهم. . الدنيا الصاخبة بأجمعها. .

كل ذلك ينابيع يستقى منها الكاتب والأديب والقصاص الماهر والشاعر الحى. . والرسام المتذوق والموسيقى الفنان ألواناً زاهية أو ألواناً قاتمة. . ضحكات أو دموع. . حكمة الفيلسوف أو قهقهة الأبله. . أو مجون المعربد أو تمتمات الصوفى المتبتل. . أو تضحية الفدائى الغيور. . أو رعدة الجبان الخائف. . وفى عصرنا هذا راج الأدب الشعبى وازدهر. . وكسب الميدان. . وفاز فى السباق والجولان. .

أدب الشعب. . أدب كل الطبقات والألوان والأمزجة إنه الأدب المعبر النابض.

ولا نقصد هنا بالتعبير عن الأدب الشعبي وخامات الأدب الشعبى وميادينه وينابيعه النزول بالأسلوب والإسفاف فى التلوين والانحطاط فى الهدف. . واللون الصارخ. . أو اللون الزاعق أو تلطيخ الإطار. . والجناية على الأصول وهدم قواعد اللغة أو العبث بالمفاهيم. .

كلا . . وحاشا أن يكون هذا أدباً . . وعواطف الناس فى طبقاتهم المختلفة هى عواطف الإنسان الإنسان الطيب . . الإنسان البسيط غير الملتوى والمعقد إنما هناك ما نقصده وما نعتز به كتراث . . الموضوعات . . المواد حياة الناس . . كل الناس . . هذا النهر الجياش . . الرقراق المتدفق . . به جواهر وبه زبد . . وبه صفاء . . وبه عواطف وعواصف وعلى شطوطه جمال وهدوء . . وسحر . . إنه الأدب الشعبى فى مواده وغمزاته ولزماته فى أهاجيه ومدائحه . فى عواطفه وبسماته . . فى أناته وولولاته . . أدب وفن وتاريخ تاريخ الإنسان البسيط «بلا تزاويق» ولا أصباغ ولا تكلف بلاغة فيها صدق الأداء وبساطة التعبير . . وأصالة الإحساس ولم يعد الأدب والفن نوعاً من الترف الذهنى أو شيئاً يملأ به الفراغ وتدغدغ به كوامن الغرائز استثارة . . لا . . وأكرم بالأدب منزلة . . إن الفن قدس من الأقداس والأدب تعبير وصلاة وصلة بين الناس . . وكشف عن معادن الإنسان وخدمة للتقدم والسمو بالإنسان . . الأدب والفن رسالة إنسانية والرسالات ليست إضافات أو تسليات أو تزجيات ، إنها

كمال وليست من الكماليات . . ولهذا لن يشغل الأديب والفنان مكان «المهرج» فى قصور الخلفاء ولم يعد الشاعر يرمى ببدرة يرميها «هارون الرشيد» لنكتة أو ضحكة أو قصيدة عصماء. . أو قصيدة عمشاء. .

ولم يعد الأديب مسامراً ليزيـل الأرق عن أجفان المتخمين أو يصف جارية تحت نافذة السلطان ولم يعد الأديب مداحاً ولا انطوائياً . . أو يكون إنتاجه وتصويره وقفاً على نوع أو لون من الناس. . أو يدور فى دائرة لا يعبر إلَّا عن حالات خاصة به في نطاق محدد محدود .

والأدب والشعر والفن أعداء الاسترقاق . . أو الذاتية المغـرقة . أمـا وصف المشاعـر والانتفاضـات. . أو الذكريات . . فإنها لون يقبله الأدب ويرحب به الفن . . وهل ذات الأديب والشاعر والفنان إلَّا جزءاً من الحياة والزمن؟ ولكن القصور على ذلك اللون الغارق في الذاتية . . نوع من القصور والتقصير والاكتفاء بهذا اللون من الأدب والشعر والفن نوع من العجز . . والأدب العربى القديم يا سادة. . . لا نستطيع أن نتهمه كل

الاتهام بالذاتية المغرقة أو ضياعه في بؤرة الزخارف والبراقش. . والالتصاق بحياة القصور وندامى الخلفاء غير الراشدين . . لا نتهمه كل الاتهام وأيضاً لا نستطيع أن نبرئه كل التبرئة من هذا اللون الغارق فيه . .

فمن الإنصاف أن نقول عن أدبنا العربى القديم . . إنه عنى بالآداب الشعبية التى تتناول الأساطير الشعبية التى ألفها مجهولون . . ولحنها مغمورون . . ورواها سمار الليالى من أناس يعيشون عيشة البساطة وامتلأت بطون الأسفار بالأقاصيص والخرافات . . والفكاهات . . وشيء غير يسير من الأطروفات . . كانت تنعكس عليها صور من حياة الناس كل الناس خاصتهم وعامتهم . .

وإن كان الأكثر والغالب. . كان لون الذاتية. . وحياة الخاصة وخاصة الخاصة . .

واقرأ ما فى الأغانى والعقد الفريد . . والكامل ونهاية الأرب ويتيمة الدهر ومروج الذهب. . وغير ذلك من مراجع الأدب العربى القديم تجدها ـ وأيم الله ـ غارقة مغرقة بأخبار الخلفاء والأمراء والندماء والقصور والجوارى

والشعراء الذاتيين وتغلب عليها ألوان من الغزل والمدح والهجاء والبكاء وإعطاء جائزة أو جارية. . وكأس تدور. . وسيف «مسرور» .

وإن كان هذا أيضاً والحق يقال. . قد يصور لوناً من طبقات الشعب. . كأخبار العلماء والصناع . . والزهاد. . والندامى . . والحانات. . والأسواق. . والطفيليين والبخلاء والأذكياء. . والوراقين . . والعشاق ولكن الفضل . . كل الفضل . . لأبى عثمان الجاحظ الذى عنى بطبقات كثيرة . . وصور بقلمه الساحر وقلمه الساخر الفكه الملون كثيراً من الناس. . كل الناس. .

فالأدب العربى فى قديمه. . ساهم فى تصوير حالات ومعيشة الناس. . وقدم ألواناً من الأفكار والأذواق وحام حول أدب الشعب. . غير أن أدبنا العربى الحديث نزل جاداً إلى ميدان أفسح . . ورحاب أوسع . .

وفى عصرنا استطاع قلم الأديب . . والشاعر أن يصور حالات الناس على مختلف طبقاتهم وأنواعهم . .

وخاصة كان المجال أفسح وأرحب فى رحاب القصة

والمسـرحية وفى عـالم (السينمـا) والإذاعـة . . وفى الدراسات والبحوث رأينا فى أدبنا العربى الحديث عناية كبيـرة من كبار الأدبـاء والعلمـاء وأصحـاب الأقـلام والمؤلفين . . يوجهون عناية هامة بالتراث الشعبى . . (الـفلكـلور) .

درس هؤلاء ومنهم جهابذة وفطاحل ـ ما يحويه أدب الشعب من أمثال ونوادر . . وقصص وأساطير وفوازير . . وحتى نداءات الباعة وأغانى الأعراس ونواح الندابات وأسمار الفلاحين . . وأغانى الحصاد وحداء الأعراب وشعوذة المشعوذين وتمتمات المتفائلين .

وتناولوا بالدراسة قصص ألف ليلة وليلة وعنترة والزير سالم وست الحسن والجمال . . ورأينا أديبة جامعية كسهير القلماوى تقدم لنا أطروحة الدكتوراه فى بحث «ألف ليلة وليلة» . .

ورأينا أديباً فناناً . . توفيق الحكيم القاص الفيلسوف يستقى من ألف ليلة وليلة روائع وبدائع ويصور حياة

الشعب وينزل من برجه العاجى ويترك مصباحه الأخضر ليكتب عن حياة الكادحين ويصور حياة القرية وشوارع السيدة زينب. . . ومسرحياته بعد أن كانت لأوديب وشهرزاد وضفاف الخيال ومسرحه ذهنى بعيد بعيد. . إذ به يأخذ من الواقع ويستلهم دنيا الناس ومسرح الحياة النابض. . وأولئك المستشرقون أيضاً لهم ضلع وافر فى دراسة الآداب الشعبية فى بلادنا العربية. . وإن كان بعضهم يقصد من ذلك أشياء أخرى. . تهم السياسة وتخدم الاستعمار وتمهد للسيطرة. . وهل السيطرة تأتى إلَّا بعد التفهم لنفسيات المحكومين وميولهم وعواطفهم. . .؟ درس المستشرقون نفسيات الشعوب ومنذ حملة نابليون فى الشرق العربى وكتيبة العلماء والدارسين فيها . . استيقظت أغراض ومطامع . . وعن طريق الاستشراق ودراسة كنوز هذه الشعوب وجدت دراسات وتلمظت شفاه . . نجد الفرنسيين مثلاً. . يكتبون عن أدب الصحراء فى الجزائر ويدرسون ما يحويه من أخيلة ورموز وطرائف وغرائب ويجمعون أشعار (غومة). .

والايطاليون . . هؤلاء يدرسون أمثال ليبيا والشعر البدوى بها .

وهل ننسى ما كتبه المستشرق الانكليزى المستر لين عن عادات وتقاليد المصريين فى القرن التاسع عشر . . ولبس ـ المستر ـ الجبة والقفطان واستمع لحكايات كان يا ما كان فى غابر الأزمان . . وتوجد فى جامعات ألمانيا كرس للأدب الشعبى العربى . . . درست فيه أزجال بيرم التونسى . . مثلاً . .

والحق يقال . . إن بعض أدباء الغرب درس الأدب الشعبى واللهجات الشعبية العربية لمجرد العلم والأدب وكان صنيعهم هذا نوعاً من هجرة الروح .

هناك تراث شعبى من الأدب والفن قد أهمل من قبل ذويه ولكن أخيراً وجد هذا التراث عناية ورعاية من أقلام وعقول فيها خصوبة وحرارة .

نجد أحمد تيمور العالم الذى يقص الجرة وراء الفيرزوبادى ويبين أخطاءه وسهوه فى القاموس . . ويكشف لنا عن نوادر المخطوطات ويبعث الروح فى

المراجع والمصادر ويقدم للمكتبة العربية الكثير من روائع الدراسات العميقة تجد هذا العلامة فى أواخر أيامه مهتماً بالأدب الشعبى والتراث الفنى . . . فيؤلف قاموساً هاماً عن الأمثال العامية المصرية . . .

وكتاباً آخر عن الكنايات المصرية الشعبية . . وأحمد أمين الباحث الدارس . . صاحب ضحى الإسلام وفجر الإسلام والتعليق على كتب أبى حيان التوحيدى ومسكويه الفيلسوف أيضاً يؤلف الكاتب الكبير قاموساً عن . . عادات وتقاليد والتعابير الشعبية المصرية . .

بل عباس محمود العقاد بعبقرياته وعمقه الفلسفى وبرجه المتطاول . . يكتب أخيراً عن الأدب الشعبى ويحدثنا عن بطل من أبطال الأدب الشعبى فى كتاب خاص ودراسة ذات عمق وطرافة .

وأحمد رشدى صالح يتحف المكتبة العربية الحديثة بثلاثة كتب عن أدب الشعب وفنون الأدب الشعبى والدكتور فؤاد حسنين على فى كتابه قصصنا الشعبى .

كان ذلك اهتماماً له قيمته وأثره وإن كنا نخشى أن يطغى هذا الاتجاه على ألوان من الدراسات الأخرى وإن كانت هذه الدراسات والبحوث عن أدب الشعب ظاهرة محمودة .



حاجتنا إلى العناية بالتراث الشعبى

ولدينا فى الأدب الشعبى الليبى ثروة مهولة من الزجل و «المجرودات» . . . المهاجات . . . القصص . . . الأساطير . . الأدب الرمزى . . الأغانى .

عندنا «قنانة» الشاعر الرقيق الذى تغنى بالحب والجمال وأحب الحرية وعشق الصحراء . .

«قنانة» الشاعر الشعبى الذى مزج الحكمة بالغزل وصور حب وطنه فى مطولات كانت تدور أسمارها فى حفلات البادية وحلقات السمر على ضوء القمر . .

نسيب رقيق ينساب مع عاطفة رقراقة . . . وأمانى جياشة صور من التعبير فيها حنان وظمأ ولهفة .

شبح النخل خطّر عليّا بـلادى
خـطر على ولفتى وأنـدادى

أو قصيدته الشهيرة التى فيها بلورة الإحساس وألوان من الهيام بالـوطن والتردد بين الهجـرة والمكوث.. واللصوق بتربة الوطن الغالية :

تـركناه وطن العـز نجلو منا
بلا مال لا هو فرض لا هو سنه
تــركـنــاه تــرك البــايــن
أحنى وطنا ما هو علينا هاين
علة محاريت الجمال دفاين
والقل عازات الرجال انضنة
إن داينوك الناس لا تـداين
راهو عقاب الدين يرجع غنة
تـــركــنـــاه للفـــلاحـــه
تركناه للّى طـالبين الراحـة

بـوخرص. . . يـدرجح كمـا الـطلواحـه
بــلا مــال حتى ريــادن عــافنــا

تـــركـــنـــــاه لـــلهـــمــــــازة
تـــركنـاه وطن المـــرمـــدة والعـــازه
بـنقـــطعـــوا رقـــراق فـيـــه مفـــازه
سوا بمال ولا بفقر ما يشغلنا الخ .

وعندنا الشاعر الزجال «الفورتية» . . وعندنا «غومة» البطل الثائر والشاعر المرتجل على صهوة جواده . . هناك مطولات من أشعاره فى الأسر . . أشعاره يصف البحر أشعاره فى اسطامبول فى تونس فى الصحراء . . فى المعارك .

ومن شعراء البادية المبدعين . . «سوف» وقد رسم فى قصائده لوحات مبـدعة . . وقـد كان مـرتجلاً شـأن الصداحين من أدباء الشعب . . فى كل مناسبة قصيدة . . فى كل حادثة ذكرى وتسجيل مبسم الفضة الذى ترسله إحدى الجميلات المعجبات هدية للشاعر البدوى يقول فيه :

يا «مبسم» الفضة سالتك بالله
قداش مصاتـك رقيق الخلة

وقــداش مــصــاتــك مــصــة
وقـداش بلعاتـك بغصيص وغصـة

وقــداش دخــانــك رقــا وتعــلى
آخ . . . بــاك بنباك . . . يــا شــرع الله

وفى الفروسية ضرب الشاعر «سوف» بسهم وافـر
وسجل فى الشعر البدوى تحنانة للمواقع والملاحم . .

أستــاحشت «بنيــادم» ورملة «زارة»
ومـدفع يشعـل كوره عمـل غبـاره

استــاحشــت حـــرب الغــاصب
فــزع بعد الكشـف جـاى مضـافـر

عقاب ليل قبل الصبح حدر طافر
طفر طفر طفـر الواد فى المحـداره

كسر جيش جانـا من بعيد مسـافر
نــوى بــرنــا من مصــر لــزواره
بــالات ومـدافــع وقــوة حــافــر
وبحســاب نــاس طـرابلس خـواره

لقى صيود كيف الصخر ما يتعافر
أجبال شامخة ما حركتهم ناره
كلى كف بعد الكف ياكل دافر
ويغدى على سوق البلى وشراره

وجاى رام المولد
يروح نافر . .
ويندم على من شار له واشراله
يندم على من شاور . . بعد أن كوى بالحاميات محاور

قداش لوح فى البحر من «قاور»
قداش ضاعت له أموال نجاره
بين الدول يقعد جار مجاور
كيف قبل كانوا يخدموا بالباره
كيف قبل كانت ناسه
من مصر لتونس لمكناسه
وين ما بنى هم بادين في ساسه
وين ساس خارب قاضين غباره

مخصـوص بالخسـة وزاد خسـاسـه
وعنـد كـل محـرر بـاين عـاره
يـا رب عجل بخـلاص خـلاصه
فى يـوم سـاعـة نصـر تخـلى داره
فى يـوم هـبـهـب عـونـه
فى نهار لا هـو ليل لا هـو خونـه
مـتيـحـره وكبـوده مـسـحـونـه
وفى دنيـاه مـا تقـبـلاش دبـاره
«بمـوزر» خفيف الغـز من كبـوسـه
كل من لهف عضمة مشمش شطاره
هيهـات بـر طـرابلس وسكـوتـه
أظن بسكتـة الغـادر يلوح أوكـاره
كـانش أكملنـا بـالتفصيـل رمـونـا
ومـا عـاد حى من بـلادنـا تـوارة

وهناك شعراء آخرون فى الجبل الأخضر فى بطاح برقة فى صحراء فزان . . ألوان كثيرة مهملة . . وأصباغ تكاد أن تبهت من كثرة الإهمال . . وذكريات من الشعر والزجل

تكاد أن تنسى ولم يضمها قرطاس. . . إنما هى فنون من الشعر والزجل سارية على ألسن البادية. . فى ليالى الأعراس. . . وعند ألعاب الفروسية. . وعندما يجترون سوالف الذكريات. . . ويحركون قريحة الشاعر. . فيهز مشاعرهم بأغنياته وأوصافه. . يجعل من الشىء الصغير معلقة. . تباهى معلقات امرىء القيس والشنفرى. .

فكل يصف ما رآه وما ارتآه. . وكل له رواة وحفاظ ومعجبون والشاعر. . أو كما يطلق عليه فى البادية «الطالب» له أثر وتأثير وله فى المناسبات والحفلات قيمة وأى قيمة. .

فله عين مدركة ـ وقريحة فياضة. . ولسان يا له من لسان ! قد يقلب المدح هجاء. . أو قد يبدل الهجاء إلى مدح . . وقد يتلون الشعر البدوى مع الموسيقى فى ربابة بسيطة تنساب ألحان الوتر وألحان الحنجرة. . مع الخيال والأحلام فيكون السمر الشاعرى. . طريفاً لذيذاً. . منسجماً منغماً . . يحملك ويحلق بك إلى أجواء. . وتتمنى أن يطول الليل ولا يطلع الصباح. . . إنها صور

من الأدب الشعبى . . . تكاد أن تنقرض بفعل المدينة اللاهثة . . . وضجيج السيارات وخرشفة المذياع . . وأسباب وأسباب . .

وقد سجل الأدب الشعبى فى ليبيا أمجاد البطولات وهزات ظهرت على مسرح الكفاح الليبى . . وتاريخ الشعب . . وأغانيه وأناته وبسماته . . فى الأدب الشعبى . . تراث ضائع . . . ورسوم وصور وألوان . . . وهناك شخصيات انحدرت فى الأدب الشعبى عن طريق السماع وعن طريق الرواية . . . وعن طريق القراءة والمطالعة . . . . تسمع فى أقاصيص الشعب . . عنترة . . . وأبا زيد الهلالى . . وتسمع أشعاراً أضيفت إلى هؤلاء . . . وأولئك . . . وإلى صور من معارك وملامح قد لا تجدها مسطورة فى كتاب . . ألفها خيال أديب مجهول . . أو قصائد نظمها شاعر شعبى مغمور . . .

وهناك من النوادر والأفاكيه والطرائف . . . كثير وكثير . .

ومن أبـــرز الشخصيـات في القصص والأسمـــار والمتندرات فى الأدب الشعبى بليبيا . . جحا . .

أو كما ينطق فى لهجة ليبيا «جحى» . . بالإمالة كأنها قراءة «ورش» .

وقبل أن نقوم بجولة مع جحا فى ليبيا أو قبل إلقاء القبض على جحا فى ليبيا . . . نستعرض بإيجاز الأدوار التى مرّ بها جحا كشخصية حقيقة أو أسطورة فى الأدب العربى القديم ثم جحا فى النشاط الأدبى الحديث . .

فمهلاً . . . وصبراً . .

أم ترى أنكم كموسى . . لا تستطيعون صبراً مع جولة الشاطىء .

شخصية جحا

لم تشتهر شخصية فى الآداب الشعبية كجحا . . ولم تدر فى دهاليز التاريخ حتى كادت تتوه مثل جحا . . . .

ولم تكثر الأصباغ والألوان والمساحيق على وجه كوجه جحا . . حتى كاد أن يقضى عليه الخيال . . ويغدو أسطورة بل هو من منابع الأساطير . .

وبعض المصادر ترى جحا شخصية حقيقية عاش بدمه ولحمه ودب على رجليه وصارع الحياة بقوة ساخرة . . . وإن كانت هذه المصادر تختلف فى تحديد عصره وزمنه أترى هو القرن الثانى عشر . . . أو الثالث عشر أو ما بعد ذلك؟ . . لا بل قد تصعد به إلى القرن الأول الهجرى حتى يغدو هذا الاسم فى مسلسلات الأسانيد من رواة الحديث النبوى . .

وبعض الكتب تضيفه إلى عصر «هارون» وما أكثر النوادر والأقاصيص التى تضاف إلى «هارون» والمأمون ومجالس الرشيد.. حتى كادت من مبالغاتها وسعة خيالها تلك المتندرات أن تجعل من أبى نواس أسطورة ومن أبى دلامة خرافة من كثرة الإضافات والروايات بل كادت أن تجنى على شخصية «هارون الرشيد» وصورته عابثاً سكيراً.. هذا الخليفة العالم الأديب الذى كان يغزو عاماً.. ويحج عاماً وقد تجنى طرائف الأدب على حقائق التاريخ .. وقد تتكاثر الأصباغ حتى تضيع الملامح والمعالم .. وجحا فى كتب الأدب والطرائف.. وجحا على ألسنة الناس وفى المجالس والأمثال .. شخصية حاطتها هالة من الفكاهات والأطروفات .. وأغرقتها الأقاصيص والمتندرات .. وخاصة فى القرن الرابع الهجرى .. وما يقابله العاشر للميلاد.. إنه بلغة الترجمة فى تحقيق الاسم ..

أبو الغصن دجين بن ثابت جحا ..

وهو عربى من أقحاح العرب معروف النسب والأرومة

ظاهر الدلالة غير مجهول عند النسابة . . فهو من قبيلة فزارة . .

وإذا أردنا أن نملأ خانات بطاقة تحقيق الشخصية بعد معرفة الاسم واللقب . . والقبيلة وأردت عنوان السكن . .

فإنه قد سكن الكوفة ولا يهمنا الشارع والزقاق فقد كان لا يستقر هو ولا تستقر أفاكيهه ، فقد انحدرت هذه الأفاكيه والطرائف من الكوفة حيث عاش وشرقت نوادره وغربت . . وسافرت وارتحلت . . ولبست كل لبوس عمامة وقبعة . . وتارة حاسرة الرأس حليقة الذقن . .

ارتحلت حتى وصلت إلى الأتراك عن طريق الرواية . . والأدب والأفاكيه وخاصة الأقاصيص يتواردها التجار والرحال والجنود أيضاً فى المعسكرات . . إن وجدوا وقتاً للتسلية والفراغ . . وأصحاب الأسفار وتحمل النوادر مع القوافل وتسرى سريعة فى مجالس الأسمار حول لهب الموقد فى الصحراء أو عند مجالس القرية والمدينة . . والفكاهة والمتندرات خاصة أسهل ألوان

الأدب فى الحمل والارتحال . . هى خفيفة الروايـة سريعة الانتقال والتلون . . رشيقة ساخرة . . أو لاذعة ناقدة . . أو رامزة هامزة .

تهتز لها الأشداق والقحوف أو يفتر الثغر عند سماعها وتطرب لها النفوس وتنشرح لها الصدور . . بسمة أو ضحكة . . أو قهقهة . . وهل لا بد من التكرار لنؤكد أن الأفاكيه والمتنـدرات كالأمثـال والأساطيـر فى الأدب الشعبى حملها خفيف وسفرها أسرع ومؤنتها أخف . .

وهى على هـذا أكثر تـأثراً وتـأثيراً من البحـوث والدراسات فالفكاهة والمثل والنادرة قد يحملها الإنسان بلا دواة ولا كتاب عن طريق الروايات . . والرواية قد ينقطع سندهـا ويجهل أصلهـا . . ويزاد وينقص من محتواها . . وقد تصغر وتكبر الفكرة المنقولة فى قالب ضاحك ساخر أو طريف هازىء لهذا . . نجد الآداب الشعبية بأفـانينها وفـروعها قـد تنتقل من شعب إلى شعب . . وترحل من بلد إلى بلد وتسافر من صقع إلى صقع .

فمثل يضرب فى مصر قد تجد له وقعاً أو مثيلاً مع شىء من التحريف حسب اللهجة والإطار تجده فى الشام أو يلقاك فى المغرب ويروى أيضاً فى بغداد أو مراكش . .

فالمثل والنادرة والأفاكيه سهلة الانتقال جوابة فلم تكن هناك رسائل ووسائل المجلات والإذاعات إنما هناك فى الأعصر الخوالى كانت الرحلات والقوافل والأسفار . . عن هذا الطريق كانت تنتقل الأمثال والطرائف والروايات والأساطير والخرافات . . قد تنتقلها من غير قصد على الهامش بجوار البضائع والعطورات والبهارات.

ولا غرابة إذاً أن نجد تشابهاً فى النوادر والفكاهات والأقاصيص والمرويات من المشرق والمغرب تلتقى على صعيد الأدب الشعبى .

وهكذا نستخلص من هذه المقدمات والمسترسلات من المنتظر أن نجد أفاكيه جحا فى كل بلد وعلى كل لسان من صانعى النوادر. . والمتمثلين بالأمثال.

ونجد عمنا الشيخ جحا كأنه ممثل يرتدى أزياء

وأصباغاً أو كأنه ترجمان متفنن يجيد عديداً من اللغات واللهجات بصور مختلفة وعلى أشكال وحالات . .

جحا تارة فى بغداد وتارة هو يرتاض على شط النيل وما بين دجلة والفرات . . وفى مسرح الأدب نقلة أسطر وليست نقلة أميال .

تجده مصرياً ابن نكتة أو تراه مغربياً بل تراه أحياناً فى بلاد الألمان أو عند صخرة «مالطة» وعند الأناضول وعلى شط البسفور بل يقفز إلى شوارع روما أيضاً فهو بعد المشيخة سنيور وهو خوجة أو خواجة .

وتارة جحا يصوره لنا الأدب الشعبى عابداً متصوفاً أو عالماً نحريراً . .

وتارة يزج به فى زقاق أو فى قصر من القصور تارة جليس سلطان أو جليس أحلاس . . وصديق آفاق وصعلوكاً من الصعاليك . . ومفلوكاً من المفاليك ويصوره الأدب الشعبى تاجراً من التجار متجولاً على بغلة أو حمار أو قابعاً فى سفينة هزها الريح والدوار . . . أو هو

غاشياً المجالس والأسواق صاحب حيل وكديات كأنه أبو زيد السروجى بطل المقامات فى لبوس .

ومرقعات وحالات . . . ولكل سؤال جواب . . . . وفى كل مأزق يخرج سالماً ومن الورطات يعود ظافراً . .

ولهذا . . ما أكثر طوفان وجولان جحا . . يحمل أكثر من صفة ولديه أكثر من جنسية وتتجاذبه كثير من الشعوب . .

تارة عربى . . أو تركى . . أو مولد من المواليد . .

وتارة . . انجليزى . . ولعله يطلب الانضمام إلى مجلس «اللوردات » وتارة إيطالى . . وألم يدخل جحيم دانتى . .

وتارة ألمانى . . الهر «هاول جلاس» .

ولعله تسرب عن طريق «صقلية» فكان . . . «جيوكا» أو «برتولدو» حسب اللهجة والرطانة فى لغة الطليان . .

ولعل جحا زار مدينة الفاتكان . . فى سالف العصر والأوان . . .

ومالطة . . تأخذ ألفاظاً من لغة قحطان وتمزج فى لهجتها من العربية حفنات من الكلمات بلغتها ذات الإماله والتحريف والخلط «سكلانس» ومن مأخوذاتها جحا . . . ألم تكن الجزيرة أو الصخرة للعرب ثم للأتراك؟ فبقى «جحا» هناك راطناً محرفاً . . «جاهان» ولعله يوماً صافح الشدياق وألم يذكره فى الاحاطة فى أخبار مالطة . .

وربما فى المستقبل ادعاه سكان القمر وأخذوه منّا وأضافوه إليهم لخفته وشفافة روحه . .

من يدرى . . ؟ . . لست أدرى . . . ولا المنجم يدرى . . . .

. . يا سادة . . . كثرت المرويات عن جحا وتعددت الأوصاف والنعوت . . . حتى غدا بدل الشخص شخوصاً . .

فهو أعجب شخصية أسطورية تحتل في الأدب الشعبى مكاناً مرموقاً يحسده عليه كثير من أبطال الأدب . . . وشخصيات الفن حتى أبطال الإلياذة

والأوديسا . . لم يسر حوارهم سريان وجريان نوادر جحا لقد فاقتهم فى الشهرة . . . والذيوع . .

وهذه الآداب العربية القديمة . . وتلك المعاجم والمطولات بها ثروات وكنوز مخبئات من الأفاكيه وظرائف الطرائف . . مثلاً أبو الشمقمق . . والشماشقة كثيرون . . .

ولكن أشهر الرواية فى الأدب . . . ولا عجب . . عن جحا الفزارى البدوى . . . أو صنوه . . . جحا نصر الدين التركى فالأول ضاع قبره وراح . . . ولم تدل عليه إلَّا روايات الميدانى فى أمثاله . . أو الأصفهانى فى محاضراته . . . وأبو الفرج فى أغانيه . . . وغير ذلك من أدب خفيف شيق رشيق . . . أما جحا نصر الدين التركى . . فما زال له قبر مشيد . . . وقبة عالية الصرح . . وله مزار تلتمس عنده البركات . . وتقرأ عنده أم الكتاب ويؤكدون . . أنه من قرية خورتو . . . . بناحية سيورى حصار . . . فرب الأناضول . .

وإن أردت الحساب بالأرقام لتؤرخ لجحا الأتراك . .

مولده عندما صرخ صرخة الوليـد 605 هـ ـ 1209 م وصرخته أو شهقته عندما ودع الوداع الأخير 683 هـ ـ 1285 م . . .

وليس الحظ فى القبر والضريح والقبة والنذور إنما حظه فى دنيا التراجم والأدب أو فى نصيب . . فقد طبعت نوادره بالتركية فى سنة 1328 هـ . فى مجلد ضم زهاء مائتين وخمس وخمسين نـادرة 255 وهذا ليس بالشىء القليل . . لم يجده جحا العربى إِلَّا بعد أجيال وما دمنا فى منعرجات التاريخ . . فتلاحظ قبل أن يطول بنا المشوار . . أن جحا نصر الدين توفى قبل المدمر تيمورلنك بأكثر من نصف قرن . . ومن باب الأولوية أو البديهة فـإنه صعـد إلى ربه قبـل أن يشاهـد كلحة جنكيز خان فلم يكن جحا مشاهداً . . . لهذا . . ولا ذاك . .

فكل نادرة جحوية فيها جنكيز أو تيمور . . فهى من الأساطير وليست من المسطرات فى ثنايا تاريخ أحد الجحوين . .

كتب أشـارت لجحا العربى :

عيون الأخبار ـ لابن قتيبة ـ القرن الثالث .
البيان والتبيين للجاحظ القرن الثالث .
أغانى ـ أبى الفرج ـ القرن الرابع .
صحاح الجوهرى ـ القرن الرابع .
نثر الدرر ـ الأبى ـ القرن الخامس .
شرح القاموس ـ الزبيدى.
محاضرات ـ الراغب الأصفهانى .
أخبار الحمقى والمغفلين ـ ابن الجوزى ـ القـرن السادس .
مجمع الأمثال ـ الميدانى ـ القرن السادس .
فوات الوفيات ـ لابن شاكر .
ذيل زهر الآداب ـ للحصرى .
حلبة الكميت .
ثمرات الأوراق ـ لابن حجة الحموى .
المستطرف للأبشيهى .
حياة الحيوان للدميرى .

مضحك العبوس ـ لابن سودون .
فهرست ـ ابن النديم .
الفاشوش فى حكم قراقوش ـ ابن مماتى .

هؤلاء كلهم . . وهناك أيضاً غيرهم أشاروا لجحا العربى قبل أن يوجد جحا الرومى . . . فهو إذاً شخصية حقيقية . . . وإن كانت نوادرهم تكاد أن تنبو به وتجرفه إلى سحيق الخيال . . . وإن كانت نوادرهم تروى من غير دراسة ولا إمعان . بل مجرد سرد ونقل وحاول بعضهم أن يلقى ظلالاً على شخصية جحا فنجد أحمد الميدانى فى القرن السادس يحاول هذه المحاولة فيقول . . . .

رواية الميدانى :

هو رجل من «فزارة» كان يكنى أبا الغصن . .

ثم يروى الميدانى أطروفتين لجحا . . ومن حمقه أن عيسى بن موسى الهاشمى مرّ عليه وهو يحفر بظهر الكوفة موضعاً فقال له :

ما لك يا أبا الغصن . . ؟

قال : إنى دفنت بهذه الصحراء دراهم ولست أهتدى إلى مكانها .

فقال عيسى :

كان ينبغى أن تجعل عليها علامة . . .

فقال جحا لقد فعلت . .

قال . . ماذا ؟

أجاب جحا . . سحابة فى السماء كانت تظللها ولست أدرى العلامة . .

ونجد هذه القصة فى الأسمار الشعبية بليبيا ولكنها بدل الدراهم تكون عباءة . . وبدل السحابة تكون القمر هى العلامة .

وهذا يدل على مرجعها وإن رويت أولاً من كتب الأمثال والأدب ثم بالمشافهات والمداولات أصبحت هكذا وكثير من نوادر الأدب الشعبى لها مرجع من المراجع الأدبية كما سترى عندما نتعرض لنوادر جحا وأمثال جحا عند العامة الرواة بليبيا.

ويقول أحمد الميدانى بعد سرد فكاهات جحوية وإن

كان مرجعها إلى الحمق عنده وهو تعليل ليس من السهل قبوله بعد هذا يتعرض إلى اسم جحا من الناحية اللغوية وهذا ديدن أدباء المتقدمين يقحمون اللغة والميـزان الصرفى حتى فى غير مـوضعه .. يحللون ويعللون الألفـاظ والألقاب والكنى ويتـركون مـا هو أهم فى الموضوع .. بلا تحليل ولا تعليل ولا يسلطون عليه نبراس الدراسة ..

المهم .. الميـدانى يرى أن ... جحـا اسم لا ينصرف لأنه معدول من حاج .. مثل عمر من عامر .. يقال جحا يجحى جحواً ... إذا رمى .. يقال حيا الله جحولك أى وجهك .. فهل تقبل أيها القارىء ... حيا الله جحولك تحية!؟ .. إلَّا إذا رجعت للميدانى فى أمثاله؟. ليته ترك كل هذا الاستطراد اللغوى... وأتحفنا بنوادر جحوية مهما كان حمقه .. فإن الحمق أحياناً يكون موضعاً هاماً لدراسة النفس والأدب والفن .

ابن الجوزى :

وهـل الميدانى وحـده يضيف جحا إلى حـظيـرة

الحمقى؟ . . لا . . بل ها هو عالم أديب كابن الجوزى يؤلف كتاباً عن الأذكياء ثم يردفه بآخـر أكثر طـرافة ودسامة . .

وعنـوانه يـدل على مـا فيـه . . «أخبـار الحمقى والمغفلين » . . ويزج بالشيخ جحا فى هذا الميدان ولكنه كان أرحم به من الميدانى إذا أراد ابن الجوزى أن يدافع عنه بعض الدفاع فقال . . .

روى عنه ما يدل **على فطنة وذكاء** . . إلَّا أن الغالب عليه التغفيل .

وقد قيل إن بعض من يعاديه **وضع له حكايات** .

وعن مكى بن ابراهيم :

رأيت جحا كيساً ظريفاً . . وهذا الذى يقال **عنه مكذوب عليه** .

وكان له جيران يمازحونه ويمازحهم «فوضعوا عليه» .

وهذه النصوص من «ابن الجوزى» هامة جداً إذ إنها

أولاً تثبت وجود جحا العربى من ناحية وهذه النقط الثلاث .

- بعض من يعاديه وضع عليه .
- هذا الذى يقال عنه مكذوب .
- جيران يمازحونه وضعوا عليه .

تثبت الاختلاق والوضع على جحا الذى حملوه كثيراً مما لم يقله إنها إثباتات ومفاتيح هامة الدلالة على شخصيته وعروبته أيضاً ونشكر ابن الجوزى على إشارته هذه التى لم نجدها عند غيره من الأدباء المتقدمين .

نثر الدرر :

والأبى كان فى القرن الخامس الهجرى وهو ينقل عن أبى عثمان الجاحظ فيقول . . . .

حكى الجاحظ ـ ولم يشر إلى أى كتاب توجد فيه هذه الرواية ـ أن اسمه نوح . . وكنيته «أبو الغصن» . .

وهذا لا جديد فيه غير أن نوح عمر كذا عاماً . .

وهذا عمر مئة سنة . . وهل يا ترى الفكاهة والضحك

لهـا أثر في إطـالة العمـر كما يـزعم علماء النفس والصحة. . .؟ ويمضى الأبى متحدثاً عن جحا صاحب العمر الطويل وفيه يقول عمر بن أبى ربيعة:

. . . ولهت عقلى وتلعبت بى
حتى كأنى من جنونى جحا

وأدرك أبا جعفر. . ونزل بالكوفة

ولا يوجد هذا البيت فى ديوان عمر بن أبى ربيعة . .

فهل أضيف يا ترى إلى شاعر النسوان هذا البيت كما أضيف إلى الشيخ جحا عديد من الفكاهات . . على كل حال . . مهما يكن من أمر . . فى موطن الاستدلال هنا يهمنا لا نسبة البيت . . كما لا يهمنا عند الميدانى تصريف اللقب . . إنما يهمنا أكثر أن جحا شخصية عربية عرفت منذ القرن الرابع الهجرى أو قبله أيضاً . .

قبل ألف عام أو يزيد .

ونجد ابن النديم صاحب الفهرست. . وقد توفى 385 هـ يذكر من الكتب «نوادر جحا» ولا يعرف صاحبها

أي جامع النوادر. . . وفى سطر نستخلص. . أن جحا العربى عرف قبل التركى وجحا الأوروبى فالتركى عرف بعد السادس الهجرى وكلاهما أغرقه الخيال. . وتجاذبته الأمصار والأقطار أبو الغصن ونصر الدين .

جحا فى الأدب الحديث

كامل كيلانى .. صاحب مكتبة الأطفال وله مقالات . ودراسات عن جحا .. ألقاها فى الإذاعة المصرية .. وسامر بها فى إحدى ندواته الشهيرة بالقاهرة ... ونشرها فى الصحف ثم فى مجلة الرسالة القديمة للزيات وقد تعرض له من ناحية العرض والفكاهة والنقد وله سلسلة جحا قال يا أطفال بها مجموعة من القصص الخفيف جحا فى بلاد الجن ، مصباح الكهف ، الأشقياء ، المتصافعون جزائر الواق واق .. ومن قصص جحا لكيلانى أيضاً ، الحمار القارىء ، وزة السلطان سوق الشطار ..

ثم داعبه أحد الأصدقاء قائلاً كيلانى الأيام دى سارح بجحا . . وهى من تشنيعات مصطفى حمام ، رحم الله الجميع .

كما ألف محمد فهمى عبد اللطيف كتاباً صغيراً قدمه فى سلسلة كتب للجميع جعل موضوعه «مذكرات جحا» ونشر فى شهر أغسطس 1954 . . وكما يفهم من العنوان فيه خيال الأديب وفكرة القاص واعتمد على مرويات عن جحا ونوادره ومواقفه .

مسمار جحا

للشاعر فريد عين شوكت :

ونشر الأديب الشاعر فريد عين شوكت قصيدة يصف فيها جحا فى تسعة عشر بيتاً ونشرها بجريدة الأهرام 10 يونيو 1946 عدد 2175 :

حدوثنا عن فكاهات جحا
فحسبناه غبياً مرحا
وزعمنا كل ما جاء به
هذراً نبغى لديه الفرحا
فإذا هذا الذى يضحكنا
فيلسوف جد فيما مزحا
وإذا كل حديث فكه
فيه للعاقل نصح وضحا

يا لمسمار جحا: كيف غدا
في الورى رمزاً لمكر نجحا

باع كل البيت واستبقى لـه
فيـه مسماراً أبى أن يـطرحا

هــانت الـدار عليهــا كلهـا
غير ذا المسمار مهما أربحا

ولقد ضحى ببعض المال في
أن يـراه كـل ليــل وضحى

وارتضى الشاري ولم ينكر على
بـائــع الدار له مـا اقترحـا

بـل لقـد ظن جنـونـاً مسـه
ودعا الرحمٰن أن يشفي جحا

وسعى الشاري على طرق جحا
سـائلاً صـاحبـه أن يفتحـا

إنــه المسمار قــد أوحشــه
فـأتى يـرقىء دمعــاً سفحـا

وتغـــدى وتمطـــى ومضـــى

بعـدمـا أطفـأ شـوقـاً لفحـا

وأتى الليــل فــوافى يبتغى

روية المسمار فالصبر امحى

وتمشـــى وتعشـــى آســـفـا

فهوى المسمار ألَّا يبـرحـــا

وبـدا الصبـح فـولى داعيـا

صاحب الدار وما كان صحا

يا شقاء الدار بالمسمـار بل

يا أسى الشارى بما قد فرحا

عرف العزم الـذى حاق بـه

ورأى الأهوال فيما اجترحـا

ثم بـاع الدار بخسـاً لجحا

واستراحـــت نفســـه إذ نزحا

جحا والمسرح

دخل جحا ميدان البحوث والدراسات. . . وكان له في هذا المجال نصيب وافر من الأقلام . .

ودخل ميدان القصة. . والمسرح. . والشعر أيضاً . .

وقدم الشاعر المسرحى على أحمد باكثير مسرحية «مسمار جحا». فى ستة مناظر . .

ومثلتها فرقة المسرح الحديث المصرية . . قدمتها على مسرح الأوبرا فى موسم 1951 م .

وقام بإخراجها الفنان الأديب زكى طليمات ، وقامت بتمثيلها فى طرابلس أيضاً فرقة مدرسة طرابلس الغرب الثانوية على مسرح الهمبرا فى العام[1] الفائت. . وقد

---

(1) عام 1956 .

لاقت مسرحية «مسمار جحا» نجاحاً وإقبالاً لما فيها من أصالة صادقة . . وخاصة عندما عرضت فى مصر أيام المصاولة على قناة السويس وأيـام المقاومـة الشعبية الفدائية هناك .

وكان «مسمار جحا» يرمز إلى الاحتلال ووسائله . . وحجـج الاستعمار الـواهية . . . وقـد جعل الكـاتب المسرحى من شخصية جحا . . . عالماً واعظاً فى مدينة الكوفة . . وتظهر المسرحية جحا رجلاً وطنيـاً ثابت العقيدة قوى الإيمان صاحب فكاهة ونادرة . . . سريع البديهة . . سريع الحركة متوقداً ساخراً . . إلاَّ فى الحق فإنه متثبت غيـر مفرط يـدافع عن أهله ، ويحـارب الاستبداد والاستعمار بأساليبه وأفانينه . . ويتصدى للظلم ليدكه . .

ومسمار جحا من أمتع المسرحيات الوطنية التى تلهب الشعور . . وتلعب بالعواطف . . . وتدفع فى هدفها إلى المثل الكريمة من حب الوطن والدفاع عن الحق فى ثوب فكاهى ومتندرات شعبية مشهورة متداولة .

وجحا هنا له زوجة وابن .

وقد يطول تلخيصها . . ويكفى أنها من قلم الكاتب والشاعر المسرحى على أحمد باكثير الكاتب الحر .

وقد اعتمد فى صوغ المسرحية الجحوية على روايات وفكاهات مأخوذة من الأدب الشعبى . . . وأصبغ عليها من حواره وأفانينه أصباغاً وألواناً وغلفها بستار طريف . .

إن هذا الكاتب يستقى مسرحياته من جدول التاريخ ونهر الحياة الكبير . . . ومن ينابيع الأدب الشعبى . . والأدب الرفيع . . . .

إنه صاحب ، سلامة القس . . وإسلاماه . . . وسر الحاكم بأمر الله . . . وأبو دلامه . . . وأخيراً . . مسمار جحا . . وكانت فى القمة من نتاجه الأدبى . .

أرأيتم كيف تكون الآداب الشعبية مورداً وينبوعاً فياضاً للمسرح والسينما والإذاعة ؟ . . .

جحا أخذ طريقه إلى المسرح الحديث . . وأخذ طريقه إلى فن القصة .

جحا يدخل ميدان القصة

جحا فى جامبولاد

من سلسلة «إقرأ» قدم لنا الأستاذ فريد أبو حديد قصة «جحا فى جامبولاد». . وأتحفنا الكاتب أيضاً بقصة أخرى بعنوان. . «آلام جحا». . . وكلا الكتابين لا يصور لنا جحا الضاحك المرح. . . أو جحا الأبله العابث. .

بل جحا هنا كما صوره أبو حديد. . فيلسوف. . عالم . . مصلح اجتماعى وثائر مجدد. .

فهى قصة إلى الرمز أقرب . . كتبها مؤلفها أستاذنا أبو حديد فى ظروف وعوامل نفسية خاصة . . . كما حدثنى فى إحدى الأمسيات عندما تحدثت معه بشأن قصة جحا وفى العام[1] الفائت عرضنا لهذين الكتابين فى إحدى الندوات الأدبية بمركز الثقافة المصرى بطرابلس . . . .

(1) عام 1956.

وجحا فى جامبولاد قد يغرى عنوانه بالفكاهة والأطروفات ولكن ليس فيه إلَّا جحا الجاد الصارم . . ولم يعتمد الكاتب فيه على فكاهة ولا نادرة مشهورة أو مأثورة . . . كما استطاعٍ أن يعتمد «باكثير» فى مسرحية . . مسمار جحا مثلاً . . .

بل جحا فى الكتابين ليس عنده إلَّا الحق الصراح . . والأسلوب الجاد . . . ولا أقول الجاف . .

وفريد أبو حديد صور لنا جحا يخرج من بلدته «ماهوش» تاركاً ولده وابنته وصديقه «أبا النور» . .

وفى الطريق يصادف فارساً جباراً عتلاً . . وزعم جحا أنه فقيه وكاد أن يبدله الرجل الفارس بكلب تنازع عليه مع فارس آخر . . كما يتنازع قطاع الطرق . . . أرأيتم كلب يساوى عند الجبار الفارس بعالم فقيه؟ . . يا لضياع العلم مع القسوة وجبروت الجهالة . . وتدور أفكار فلسفية عند جحا . . أو عند فريد أبو حديد على لسان جحا . . حتى وصل مدينة «جامبولاد» التى كان قد انتزعها تيمورلنك .

وكان أهل جامبولاد يرفعون الأعلام التى تدل على مقدار ما عندهم من قدور الذهب . .

ويتحلون بالريش الذى يدل على الثراء. . ذهب وثراء هذه هى القيم والمقاييس!؟.

هـرب جحا من «مـاهوش» بلدتـه. . . فوقـع فى «جامبولاد» أنه خرج ليبحث عن الحرية والكرامة والقيم الفـاضلة. . وجحا هنـا مهـذب مؤدب يعـطف على المساكين . . وذواقه يحب الجمال ويربى الزهور . . . وهو أيضاً أستاذ معلم . . جعل مجلسه علماً ووعظاً وإرشاداً . . . وجعل فى الشهر حصتين للهو البرىء ويـدعو أعيـان «جامبـولاد» للهو والـرياضـة. . وعـاد «تيمورلنك» إلى مدينة «جامبولاد» بعد انتصاره فى غزواته وحملاته . . وحمل معه خصمه «بايـزيد» فى قفص من حديد. . . وأحب جحا فتاة فى العشرين ابنة صديقه . . وتذكر حبيبته الأولى فى بلدته. . «ماهوش» وقع فى حبين. . وأمر تيمورلنـك بإغـلاق مدرسـة جحا. . . طامة. . وورطة. . هل يهرب. .؟ هل يهاجر. . مرة

أخرى؟! ولكن جحا قوى الإرادة. . صلب العزيمة. . لا يخشى جبروت تيمورلنك. . ودافع عن كرامة العلم وحرية الفكر. .

ووضع جحا مقاييس جديدة بدل قدور الذهب والمناظر والريش والفخفخة الكذابة . .

مقاييس للخلق والعلم والفكر والقيم والمثل الفاضلة . . وملأ قدوره بالحصاة بدل الذهب. . . وعلق أعلاماً لمن ألف ودرس وأنصف وأرشد. . . .

وسجن جحا وفى دهاليز السجن كان مؤمناً صبوراً . .

وانتصر بعلمه وخلقه. . وخرج من السجن يردد كلمة قوية «أعرف الحق واحداً. . فإذا لم يكنه كان باطلاً».

وجحا يرى أن رجل الحقل الذى يلوث يديه بالطين حافى القدمين ممزق الثياب ويذهب إلى بيته بحزمة من الفجل هو رجل وهب نفسه للعمل. . وجدير بالاحترام والإكرام. .

خرج جحا أخيراً منتصراً بعلمه وخلقه ودفاعه عن الحق والدين .

وفى مجلس تيمورلنك دارت محاورات فلسفية . . وحوار بين العلم والعقل والمال . . وموازين ومعايير جديدة . . وهكذا يأبى الأستاذ المؤلف فريد أبو حديد إلَّا أن ينتصر جحا . . أو يغلب جانب الطيبة وعنصر الخير والإنسانية حتى عند الجبار «تيمورلنك» المحارب العتل . . .

وسالت مدامعه . . ودموع أهالى (جامبولاد) تأثراً ورقة . . ولازم جحا المسجد . . حتى طلبوا خروجه لئلا يصبح أسطورة . . وخرافة . . وطلب إليه أن يكون وزيراً فرفض وآثر التدريس وفضل المدرسة . . وآثر حبيبته الأولى على الزواج من ابنة السلطان . .



جحا الضاحك المضحك للعقاد

وعباس محمود العقاد الذى غذى المكتبة العربية بذخائر العبقريات والبحوث الدسمة . . والدراسات الفلسفية . . العقاد الذى منطق الأدب . . وفلسف الفن الكتابى . . ها هو يطالعنا بنتاجٍ عن جحا . . . وما أكثر نتاج العقاد ذى السبعين كتاباً والبقية تأتى . . وهذا الكتاب الجحوى من سلسلة كتاب الهلال . . ولكن العقاد حتى فى كتب السلاسل والشهريات بل حتى فى مقالات المجلات . . لا يترك منهاجه الفلسفى وحتى عندما يتحدث عن جحا ونوادره . . .

الكتاب عرض ودراسة وتحليل ورحلات بين القديم والجديد وسبر يتطلب إمعاناً وصبراً . . . فهو فى فصوله :

1 ـ تحدث عن الكلمة والضحكة منذ عصر الإنسان الأول .

2 ـ وعقد فصلاً موضوعه . . لماذا نضحك وعرج على أفلاطون وأرسطو .

3 ـ ساق ثلاثة آراء فلسفية فى الضحك وبواعثه . . سبنسر . فرويد ، برجون .

4 ـ الضحك فى الكتب الدينية .

5 ـ الإنسان والفكاهة . .

وبعد هذه الفصول الخمسة بطولها وعرضها يتحدث العقاد عن جحا ونوادره ويسوق ستين نادرة . . . والكتاب فى 193 صفحة وتمضى منه 130 صفحة ولا يحدثنا عن جحا ولا تلمح له ظلاً . . ونصيب جحا من كتاب العقاد 63 صفحة فقط .

وكعادة الأديب العملاق . . يفلسف الأدب . . أو يفنن الفلسفة فيضع موازين ومقاييس واستنباطات ومقدمات ونتائج . .

وبعدها يتحدث فى فصل خاص عن جحا فى الأدب . . . وكعادته يستخلص . . وهناك إيجاز بعد إطناب . . وتحليل بعد سرد وتعليل بعد تعميم . . استقراء وقياس . . منطق وفلسفة وأدب . .

ولكن الإنصاف والنقد الأدبى يحتم علينا أن نشير هنا إلى أن الأستاذ عباس محمود العقاد قد أخذ كثيراً . . واعتمد كثيراً على كتاب السيد عبد الستار فراج فى بحثه الممتع الشيق . . أخبار جحا .

وبعض النوادر بل الاستنتاجات والتحقيقات التاريخية يأخذها العقاد برمتها أو حذافيرها دون أن يشير إلى مجهودات عبد الستار فراج .

والعقاد ـ كما تعلمون ـ من اعتداده الشديد بنفسه لا يذكر فى كتبه جدولاً للمراجع والمصادر . . وخاصة إن كانت المصادر معاصرة له . . .

ومع احترامنا له ولجهاده الأدبى فإنه غمط فراج . . ولعلّه يقول كعادته . . بلهجته الظريفة فى كبرياء . .

ومين فراج هذا . . ؟ أو . . مين الواد فراج الهايف . . !؟
وكتاب العقاد صدر فى أغسطس 1956 م .

وكتاب أخبار جحا للسيد فراج صدر فى مايو 1954 م
والفضل للسابق . . وإن كان كل ذا فضل .

أخبار جحا لفراج

وهذا كتاب فيه عن جحا القديم أشياء وأشياء . . فيه تـاريخ وأدب ودراسـة منهجية وتحقيقـات بذل فيهـا عبد الستار فراج مجهوداً والمؤلف لأخبار جحا من موظفى المجمع اللغوى بالقاهرة .

ونشر كتابه سنة 1954 م . . فى مائتى صفحة . .

واعتمد فيه على مخطوطات . . وتراث قديم ونقب وفحص وقارن بين جحا عند العرب . . وجحا عند الأتراك . . واستطاع أن يرد بعض النوادر والفكاهات المأثورة عن جحا إلى مصدرها ومستقاها من كتب الأدب العربى القديم . . واستغرقت تقدمة الكتاب زهاء 62 صفحة . . وتضمن القسم الأول من كتاب فراج نوادر

جحا فى الأدب القديم . . والقسم الثاني جمع فيه النوادر التى لم يصادفها فى مصادر قديمة . .

وجعل القسم الثالث للنوادر الرمزية فى عهد «تيمورلنك» وأخيراً القسم الرابع نوادر اعتمدت على مصطلحات تركية وظهرت براعة المؤلف المصرى فى التحقيق العلمى واللغوى .

وسعة الأفق . . وغزارة المادة . وفى جملته به نقاط هامة فى الدراسات النقدية ، وأدب المقارنة والموازنة . . والكتاب من أهم ما حوته المكتبة الحديثة عن جحا ومن أغزر المصادر فى الأدب الفكاهى . . ودراسة النوادر . .

ويجب أن يلاحظ أن عبد الستار فراج اعتمد فى كتابه على الكتب والمطبوعات والخزائن . . ولم يعتمد على المرويات والمشافهات . . كما كان أكثر اعتمادنا فى كتابنا هذا . . فإن الأدب الشعبى من أهم دعائمه المسموعات والمرويات والنقل من أفواه الناس ثم تأتى مرحلة التمحيص والدراسة والغربلة والمقارنة

والاستنباط . . . السماع والمشافهة لهما أثر كبير فى دراسة الآداب الشعبية . .

وعلى كل حال قد سبقت الإشارة إلى أن الأستاذ العقاد عملاق الأدب . . قد اقتبس من فراج واعتمد كثيراً على كتابه . . ولعل هذا يضيف دليلاً على قيمة الكتاب فى ميزان الدراسة ويأخذ طريقه فى المراجع المعتمدة . . والمصادر الهامة .

جحا فى الأدب الشعبى الليبى

بالإمالة ينطق فى ليبيا «جحى» وتارة ترسمه الأقاصيص والنوادر فى ليبيا شيخاً واعظاً . . وأخرى فى الأسواق . . ومرة رحالة مغامراً . . وآفاقاً متجولاً . . أو صعلوكاً تائهاً . .

يرمى بالنكتة . . ويرشق بالفكاهة . . هازئاً أو فيلسوفاً ساخراً . .

وتارة يصوره الأدب الشعبى فى ليبيا . . أباً حنوناً . . وزوجاً وفياً يرعى البيت . . أو زوجاً يصيبه من سلاطة زوجه شواظ . .

كأنها امرأة سقراط . . وتارة براً بوالدته العجوز وتارة مع الحكام يصاول وينتقد ويسخر ويؤلب . . . وتارة

يتأرجح بين الذكاء والغباء . . هو فطن ألمعى أو غبى . .
أو على حد قول الشاعر المتصنع فى مظهره :

ولما رأيت الجهل فى الناس فاشياً

تجاهلت حتى قيل إنى جاهل

تارة يدارى أصحاب الدار . . وأخرى يثور على أجيره والجار وقد يقع فى كل حفرة . . ويغرق فى شبر من الماء . . أو هو أحياناً مدره عالم طُلعة . . عنده لكل سؤال جواب . . وما أكثر ما فى الجراب . . وقد يتورط فى عثرات ومطبات . . ومأزق وزلات . .

فى الأدب الشعبى بليبيا كثير عن جحا ونوادره فيها أقاصيص وأفاكيه لاذعة وبها نقدات ساخرة . . .

وتارة جحا لديه من الأدب المكشوف العريان . . واللون الصارخ الفاقع ما لا يمكن أن نرويه فى مجالس الصبيان والنسوان . .

وقد تتشابه الملامح بين جحا الرومى وجحا العربى وجحا هنا أو هناك . . . على اختلاف الديار . . وتباين

اللهجات. . . وقد تتحد بعض الرسـوم والغضون. .
وأجوبة جحا فى الأدب الشعبى فى ليبيا قد تكون تارة
مـوجزة . . . وتـارة عمليـة. . سـاخـرة. . أو لـذعـة
راشقة. . . وجحا فى الأدب الشعبى هنا. . كجحا فى
الآداب الشعبية الأخرى بالأناضول أو القاهرة أو بغداد .

كلها فى الروايات الشعبية لا تراعى للتاريخ ميزاناً ولا
تدخل للأرقام حسباناً . . .

فقد تلزمه بعض الروايات الشعبية مصاحبة لأبى نواس
تسمع المتسامر يقول :

. . . حدثنا يا فلان عن جحى وبو نواس.

وما يجمع بين الشخصين إلَّا مجرد النادرة . . أو
المأزق وحب الفكاهة .

غير أن أبا نواس كشخصية أدبية أحسن حظاً وأوفر
نصيباً من الدراسة والعناية . . وبون شاسع بين الحسن
ابن هانى وبين أبى الغصن دجين . . أو الخواجة نصر
الدين الرومى. . .

لقد وجد أبو نواس عناية وحفظ تراثه ووصل أكثر

ديوانه بل له رواة وشداة. . . ورغم محافظة التاريخ الأدبى على تراث أبى نواس. . وضبطه بالأرقام والأحداث. . إلَّا أن عنصر الأساطير والخرافات كادت تجرفه . . والأدب الشعبى صور أبا نواس فى صور ملونة وأقاصيص مختلفة . . حتى إنه جمع بينه وبين جحا وتروى المسامرات الشعبية اجتماع جحا وأبى نواس . . . أو قد جمع بينهما فى ذهن الأديب الشعبى توارد الخواطر أو ما يسمى فى علم النفس « تداعى المعانى» .

يذكرون جحا . . فسرعان ما يذكرون أبا نواس. . وما أبعد الفروق فى الزمان . . وما أبعد الفروق فى الاتجاه . . غير أن حب الفكاهة جمع هاتين الشخصيتين فى النوادر والأسمار على الأقل وهو جمع له مغزاه ومعناه . .

وهذا الخلط أو هذا الجمع فى الأدب الشعبى على تباعد الأزمان يشبه خلطاً وجمعاً آخر عندما تقرن كتب النوادر والأسمار جحا بجنكيز خان . . أو تدفعه إلى

مجالسه «تيمورلنك» هذا خلط.. وخطأ.. لا يقل عن الخطأ فى جمع أبى نواس مع أبى الغصن..

فجنكيز خان مات 624 هـ . 1227 م.

وتيمورلنك ولد 737 هـ . ومات 807 هـ . وبتاريخ الميلاد كانت حياته ما بين 1336 م 1405 م وشيخنا جحا ولد 605 هـ 1208 م وتوفى جحا 683 هـ 1284 م والخلاصة : حين مات جنكيزخان كان عمر جحا تسعة عشر عاماً ومن هذا ندرك أنه مات قبل أن يولد تيمورلنك بحوالى خمسين عاماً فلا اجتماع ولا مصاولات مع هذا .. ولا ذاك ... إلَّا فى النوادر والأسمار وخيال الأديب الشعبى المجهول ..

جحا فى الأمثال الشعبية بليبيا

هذه الأمثال الشعبية الليبية بها كميات مهولة من التصوير والتعبير بها رموز وبها إشارات لعصور وأزمان . . وبها أشخاص وشخصيات من ثنايا التاريخ ومن واسع الخيال .

والأمثال الشعبية مرآة انعكست عليها كثير من الصور وانطبعت عليها كثير من الحالات . .

أمثال طريفة بها هدف وإشارة . . وأمثال ساخرة ولامزة .

وأمثال بليغة قد يعبر المثل الواحد عن معانٍ لا يعبر عنها مقال طويل أو خطبة رنانة . .

الأمثال الشعبية فى ليبيا موضوع خصب للدراسات

والتحليل وليس هنا مجال هذا . . إنما يهمنا الآن تلك الأمثال التي جاءت على لسان جحا . . أو التى صورت جحا سائلاً . . أو مجيباً عن سؤال أو بطلاً لحادثة . . أو هدفاً لنادرة . . أو خارجاً من مأزق أو متورطاً فى ورطة .

وإذا أتيح لك أن تستمع إلى أسمار الناس وقصص العجائز أو أبناء البادية أو إلى السمار فى انسجامهم وأحاديثهم الطريفة على حين غفلة يتسرب اسم جحا ويدخل فى الحديث بلا استئذان . . فتسمع المثل فجأة يتناثر فى السمر والحديث . . فيزيد الحديث حلاوة والسمر بهاء . . ويكون «المثل» هنا حلية طريفة . . وزركشة جميلة . . وقد يحوى «المثل» الجحوى حكمة من درر الحكم . . أو بلاغة من رائعات التعابير . .

جحا له نصيبه فى الأمثال الشعبية . . «قال جحا»: «كيف ما عمل» جحا لنجل جولة قصيرة مع الأمثال .

وحده راقده . . ووحده ترتع :

ـ عد غنمك يا جحا .

قال . . . وحده راقده . . ووحده ترتع .

هذا مثل يضرب لتصوير قلة الشىء وإمكان حصره وفيه طرافة السؤال وإيجاز الجـواب . . وهنا المثـل كالفصيح له مقصد ومورد . . وبه أيضاً من السخرية رتوش . . ولعل الجواب أبلغ فى التصوير من كلمة . . اثنان . .

- أين أكبر؟ جحا والَّا ولده؟.

مثل يضرب لعله يشير إلى توقير الكبير واحتـرام التجربة والخبرة من حنكة الأيام والسنين .

وهذا يدل على أن جحا كان أباً وكان يتحاور مع ابنه وللشباب طفرات وقفزات وللآباء من تجارب الأيام ما يدل على تأمل واستبصار .

افتك جحا من قولة حى :

ومعناه أن جحا قد خلص من التوحوح والانفعال الناتج عن القلق . . ويضرب عند التخلص من شىء يرتاح الإنسان بعد الانزعاج منه . . وما أكثر مزعجات

جحا ووحوحاته و«حى» اسم صوت فيه انفعال وتعجب ممزوج بالألم.

يوسف راح ولقاه بوه:

ويروون لهذا قصة فى نادرة أو نادرة فى قصة.. أن جحا دعى لوليمة وأراد أن يستدرجه الداعى فطلب منه أن يقص قصة يوسف وكيف تآمر عليه أخوته... وأخذ جحا فى حماس يسرد القصة الطويلة وصاحبه يأكل ويلتهم ويأتى على أجود ما فى الطبق.. ووقع جحا ضحية «مقلب».

وفى مرة أخرى تكررت الدعوة وتكرر السؤال.. احكي يا جحا قصة يوسف... فكان فى هذه المرة حذراً وأجاب جواباً موجزاً أصبح مثلاً سائراً.. يوسف راح ولقاه بوه.

وقد عرفنا مورد المثل.. أما مضربه.. فإيجاز ما لا داعى للإطناب فيه، يضرب للاختصار.

وقصة يوسف فى الأدب الشعبى بليبيا مشهورة متداولة

من أكثر قصص الأنبياء شهرة وذيوعاً وقد نظم فيها الزجالون مطولات وليس المقام هنا للسرد والإطناب ولئلا يتسرب بنا الحديث كل مسرب نقول . . يوسف راح ولقاه بوه كما قال جحا .

موتق جحا :

والمراد بالموتق المسمار الكبير الذى يدق فى الحائط أو فى الأرض واللهجة الدارجة قد تطلق على «الوتد» كلمة «موتق» ولعل أصله «موثق» لأنه للارتباط والوثوق.

لا يهمنا اللفظ إنما المثل مشهور مأثور يروون له حكايات منوعة مفادها أن جحا أجر بيتاً أو باع بيتاً إلَّا مسماراً واحداً أبى أن يتنازل عنه . . ومن هذا المسمار نشأت المضايقات للسكان فى كل لحظة يريد أن يشاهد المسمار أو الموتق وبكل حجة مصطنعة يزعج أصحاب البيت ويعلق عليه ما يـريد ولـو كان مبعث روائـح ومزعجات . ومن المسمار نشأت القلاقل والآلام . . وليس هناك علاج إلَّا إزالة المسمار. .

وكل شيء يكون مطية وحجة واهية ومبعثاً للازعاج . . يقال عنه فى المثل الدارج . . . مسمار جحا . . أو موتق جحا وقد رأينا كيف احتل هذا المسمار الجحوى مكانة فى الأدب والقصة والمثل . . ومن أشهر ما ضرب به الأمثال الشعبية هذا الموتق . . وقانا الله شر مسامير جحا وغير جحا .

جحا ما هو متعلم بمره :

يضرب هذا المثل لمن يفقد شيئاً غير متعود عليه ، وتشير الأقاصيص الشعبية إلى أن جحا لم يكن مرتاحاً مع زوجته أم الغصن . . وتشير إلى أنه أزعجته وأزعجها . . وهذه المرأة السليطة قد خلفت منه فيلسوفاً ساخراً . . أتذكر المثل الأوروبى القائل . . المرأة إما أن تجعل منك فيلسوفاً . . أو مجنوناً . . وهل كان جحا عزباً مدة طويلة . . لأنه سائح . . متجول . . رحالة حتى إنه أبى أن يستقر وهو ما هو متعلم بامرأة يستقر معها؟ .

لعل هذا المثل يفسر هذا . .

قال جحى المرا حرفه ولو جابها الوادى :

وهذا من ناحية يفسر عدم استقرار جحا فى حياة منزلية . . ومن ناحية أخرى تشير إلى نظرة المجتمع للمرأة فى العهود الغابرة . . العهود الرجعية المتأخرة . .

عندما لم تأخذ المرأة مكانها وتنال حقها كاملاً . . هى «حرفة» بمعنى أذية وشكسة . . من الحرافة؟ . . ولو جاءت ببلاش هدية من الوادى . . . ما شاء الله . . وادى أى الماء السائل المتدفق الذى يجر معه أمتعة وبيوتاً وحيوانات . . . يجر معه امرأة يتزوجها جحا ويـراها حرفة . . ولعل الآداب الشعبية لم تنصف المرأة فابن عروس مثلاً يصورها أيضاً شكسة حرفة ولو وقاها من الصيد .

وعلى أى حال . . هذه نظرات خاطئة . . لا تقبل قضية مسلمة وإنما نسجلها لأنها «مثل» من الأمثال . . ونظرة وقد تكون نظرة حولاء . . . لعل مرجعها رجل حانق قلق لفظ هذا المثل فالتقطه حنقى آخرون وسار المثل إلى أن درج إلى ألسنة كثيرة . . لا دفاعاً عن المرأة

هنا . . ولا اتهاماً لجحا أيضاً . . إنما هـو مثل من الأمثال . . ومن الأمثال ما يضع بزمانه ومنه ما يزول بعد أوانه . . أو يبقى بعد مضى مقتضى حاله .

البكى نهار السدوة :

مثل جحوى يسوقون له المورد وينسجون له خيوط قصة . . ذهب جحا إلى السوق يلف غزلاً قليلاً على «كرناف» كبير من جذع النخيل . . والطماعون فى السوق كثيرون . . ولكن الفطن منهم قليل . . وصاح جحا . . . البكى نهار السدوة . .

واشتروه طمعاً فى الربح . . وعند اكتشاف الأمر . . قال ألم أقل منبهاً . . البكى نهار السدوة !؟ .

والسدوة . . أى التسدية . . والنسج . . عندما يقصون الغزل وهذا المثل يضرب عند التحذير وتوقع شىء سيكون . . . حذار . . . البكى نهار السدوة . . قد تكون فرحة لأول وهلة ثم صدمة كصدمة الناسج الذى وجد غزلاً قليلاً لف على كرناف وجذع .

صبعين والحق الطين :

وهذا مثل يمثل للسطحيين . . . المكتفين بالظاهر دون الغوص على الحقائق .

سطحيون . . فى الفن . . . أو سطحيون فى العلم . . أو السياسة قل لهم إن حالكم كزير جحا الذى ملأه طيناً ثم وضع عليه فى سطحه إصبعين من السمن أو العسل . .

وأخذ يعرضه فى الأسواق . . صبعين والحق الطين . . إذا غصت عليه ونكشته لحقت أصابعك الطين . . إنه مثل ظريف فيه سخرية ونقد للمجتمع الذى كان يعيش فيه جحا وفى كل عصر وزمان . . . وفى كل بلد من البلدان كثير من الطين الذى يعلوه إصبعان من العسل أو السمن .

كيف ما قال جحا فرا والاَّ قربة :

وكثيراً ما تدخل الأمثال جحا فى حومة الأسواق . . ويرتفع صوته بالمناداة والزعاق .

ولكنها مناداة فيها تحذير . . . وزعاق فيه تنبيه . . ومن وراء ذلك نقد وسخرية وعرض للحقائق فى قالب أفاكيه فمرة يلف غزلاً على جذع . .ومرة طين من الزير فيه غلالة من عسل . . وفى المرة الثالثة يحمل بين يديه جدياً هزيلاً ولكنه عند النداء والدلالة . . يقول . .

عند السلخ افرا والا قربة . .

وسمعه الطماعون . . فرا . . . . أو قربة . . . وعند السلخ لم يجدوا لحماً ولا شحماً . . إنما عظام وجلد . . فراء أو قربة ليس غير يضرب للشىء التافه .

خف جحا لامه :

ومعذرة إن سقنا هذا المثل . . . قد يضحك بعضكم فى كمه. . وقد يلعن البعض هذا السياق. . وقد يستحى بعضكم أن يذكر هذا المثل. . . ولكن الأدب الشعبى فيه كثير من صور الأدب العارى. . . أو الأدب المكشوف. . . أو التعبير على الفطرة بل هناك تعابير وألفاظ لا يمكن سردها إلَّا بهمس ورمز وعلى استحياء . . . ولكن لا بد للدارس الأدبى

والمتعرض لمثل هذا التراث أن يـذكر الشيء على علاته . . أو تذكرون كلمة قديمة عند الأدباء القدامى . . الأمثال لا تغير . . تذكر كما هى ورحم الله شيخ الأدب العربى . . أبا عثمان الجاحظ . . فقد كان أول ثائر على التزمت فى التعبير والاستحياء فى التمثيل وأنب أولئك الذين يزجون بالحياء فى رحاب التعبير ودنيا الألوان والتصوير . . . ولن يشطح بنا المقال فى الدفاع عن الأمثال وحرية التعبير إنما نحن الآن أمام مثل مشهور على ألسنة رواة الأمثال الشعبية . . خف جحا لأمه . . أو صباط أم جحا فما قصة هذا المثل؟ زعموا أن جحا طلبت منه أن يشترى خفاً . . وكان جحا باراً بها واشترى خفاً من نوع لا تجده حتى الممثلات فى «هوليود» خف من ورق وشهقت المرأة . . عجباً . . أهذا خف . . ؟ كيف أسير به . . كيف يتحمل وكان جواباً جحوياً ساخراً . . إن كان مشيتك كما رأيت فإن هذا الخف الورقى يكفى . . والقصة لا شك موضوعة شأن أغلب الأقاصيص والنوادر الشعبية . . إنما المهم أن هذا المثل ما زال موجوداً وذهب الخف . .

وصاحبة الخف أو الصباط . . وبقى المثل يضرب للشىء الرهيف وكناية عن الشىء الذى لا وقاية فيه ولا فائدة منه .

كيف غطا جحا :

عرفنا شئاً فى الأمثال عن امرأة جحا وعن بيت جحا وعن مأزقه وورطاته سجلتها أمثال الشعب فى ليبيا .

عرفناه عن طريق الأمثال فى السوق تاجراً ومشترياً .

فما هو غطاؤه . . الذى يضرب به الأمثال؟ . .

فى رسم «كـــاريكـــاتـــورى» رسم الأديب الشعبى المجهول هذا الغطاء فقال . . كيف غطا جحا ان غطا رأسه يعرى كرعيه وإن كان غطا كرعيه يعرى رأسه . .

والمثل العامى دائماً كالمثل الفصيح إن عرفت مورده فلا بد أن تدرك مضربه . . إن عرفت أصل الحادثة فلا بد أن تدرك مغزاها ومرماها . .

إن هذا المثل الجحوى يضرب للشىء الذى يربك ولا

يكفى . . فإن سددت ناحية على حساب ناحية احترت ما دام الغطاء واحداً . . والشىء محدداً .

وخاصة فى ليالى الشتاء هل يكفى غطاء جحا لرأسك ولرجليك إلَّا إذا تكورت . . أو انتظرت المصيف . .

عبا تحت القمر :

يـزعمون أن جحـا وضع عبـاءته تحت القمـر أو السحابة . . . وجعلها علامة مميزة .

وتضاف هذه النادرة فى الأمثال الشعبية إلى جحا ولها مورد من الأدب العربى القديم .

نوادر جحوية فى ليبيا

عرف الأدب الشعبى فى ليبيا جحا صاحب نادرة وفكاهة . . وجحا فى الأمثال والحكمة الصائبة . . وجحا فى القصة والخرافة .

وهذه النوادر والأقاصيص التى نسوقها كالأمثال السابقة كلها مسموعة من مجالس وأحاديث شعبية . . ليست مأخوذة من الكتب إنما من السماع والرواية . وهذا لا يمنع أن يكون بعض منها له أصل فى الرواية الأدبية عن مصادر من الأدب القديم نقلت أو قرئت . . . ثم تدرجت وانتقلت بالمشافهة والسماع والسمر . حتى أخذت لوناً آخر وقالباً جديداً وأدخلت عليها لهجة وصبغة خاصة . . وكثيراً ما تسمع النادرة والفكاهة منسوبة لجحا فى شتى

الميادين والأنحاء . . فكاهة لا تخلو من نقد أو هجاء أو عرض فكرة من الأفكار . .

فهناك علماء أو متعالمون . . يتشدقون أو يهرفون بما لا يعرفون . . وهناك من هذا اللون ثرثارون يسألون أسئلة لا تغنى وما يقصد من إلقائها سوى التعجيز . . أو هى مجرد مسائل من التوافه . . . .

بها يملأ كثير من الفراغ . . ولا يمتلىء بها الفكر والدماغ . أسئلة . . قد تكون فيها إرهاق . . . وحرام أن يضع فيها المرء حتى حبر الدواة . .

وقد يكون من هذا القبيل بعض الألغاز والأحاجى والمعميات كم عدد شعر رأسك؟. من زوجة الشيطان!؟. ما الذى ينقص عند الزيادة أو يزيد عند النقصان وأشكال من ضروب الرجم بالغيب. . وهؤلاء من السائلين أو المتثاقلين. . يجيبهم الحذاق على أسئلتهم بما يلجم ويفحم. . وضربوا لهم من الأجوبة المسكتة أسواراً. . لئلا يكثر التطاول بلا جدوى ولا عناء. .

إنها الأجوبة المفحمة . . أو الملقمة . . وقد اشتهر

بهذا النوع من الإسكات والإفحام عبد الله بن عباس . . . وابن إياس وأبو حنيفة . . وفى الأدب العربى القديم صنوف من الأجوبة المسكتة فيها بلاغة الإيجاز ومقصد الإفحام قبل الإفهام ، وجحا أيضاً كما صوره الأدب الشعبى فى ليبيا كان بارعاً فى جواب الإسكات وسرعة البديهة . . . وكلمة بها هزة السخرية أو عبارة تغنى عن إطالة المقالة .

إنتهاء الدنيا :

سألوا جحا : ـ امتى توفى الدنيا يا جحا .

قال . . نهار نموت انى .

ومن الطبيعي أن الانسان عندما ينتهى كفرد . . تنتهى نظرته الخاصة إلى الحياة . . وتتلاشى أحاسيسه وأمانيه . . ولذائذه ورغباته . . . ومن هذا الحديث النبوى . . (إذا مات الميت . . قامت قيامته) .

وبانتهاء الدنيا انتهاء الفرد . . . أهو من قبيل غرائز حب الذات أو ما يعبر عنه الفلاسفة وعلماء النفس بـ « الأنا » وهل البحث عن الخلود . . والأمجاد . . . فى

العلم . . أو الفن أو الأدب . . أو السياسة . . . أو المخترعات . . هل سبيل الامتداد إلَّا من قبيل حب الذات . . والشغف بالحياة . . وهل بقاء الذات فى صورة خالدة من صور الفكر إلَّا حياة أو تجديد للحياة . والذكر للإنسان عمر ثانٍ . . . أعمار ممتدة فى الآثار والعمل الصالح صورة من أنا . . وأنا . . . حب البقاء . . وإذا انتهت أحاسيس الفرد انتهى العالم فى نظره . . هذا ومثله المثل الشعبى . . اللى يقعد فى الدار يعطى الكرا . .

قياس الدنيا :

وين وسط الدنيا يا جحا ؟.

أجـاب، عندى هنا وإن لم تصدقوا خودوا قيسوا .

وهذا جواب فيه إفحام قبله أن تعرف الجغرافيا وقبل معرفة هذه المقاييس والرحلات ودنيا الاستكشافات والكشف عن المحيطات والقارات ومعرفة خطوط الاستواء جواب فيه إفحام وتحدٍّ عندما كان أكثر الدنيا

مجهولاً مغموراً وقبل أن يتمكن الإنسان من طيران العالم في يوم وليلة . . وقبل رحلات القمر الصناعى .

طريق :

رأى زملاء جحا أن يـراهنوه فى تسلق نخلة . . وقالوا . . ضع بلغتك هنا . . وأضمروا سرقتها . . فقال وهو يضعها فى حزامه .

ـ بالك نلقى طريق نمشى من فوق لفوق .

إنه تهرب وعذر من الأعذار . . قد يكون فيه إسكات وجواب على ما أضمروه .

عذر من الأعذار :

ـ أعطينا حبلكم يا جحا . .

أجاب . . ناشرين عليه المحمصة .

كيف . . ؟ .

قال . . عذر من الأعذار خوده والاَّ سيبه .

وهنا تدور هذه الفكاهة بين السؤال والجواب ويظهر فيها حوار بارع وجواب غريب لسؤال عادى . . طلبوا

الحبل من جحا وما أكثر طلبات الجيران ، وما كان يريد أن يعطى حبله إعارة لأنه يعرف أن الإعارات كثيراً ما تضيع وقلما يؤخذ الشيء ثم يرد . . وما أراد أن يرفض رفضاً بلا عذر ولا مبرر فأوضح عذره بأن حبله منشور عليه المحمصه . . وهذا شيء غير معقول . . هل تنشر «المحمصه» وهى حبوب كالكسكى على الحبال؟ .

إنه مجرد عذر . . وقد يلجأ الناس إلى مثل هذه الأعذار غير المعقولة مجرد عذر . . ورفض بصورة ساخرة . . وبعض المعاذير السياسية العالمية قد تكون من قبيل العذر الجحوى . .

مجرد عذر . . أو رفض على أساس غير منطقى . . . معاذير ومعاريض أو حجة واهية . . أو هى من بيت العنكبوت .

البحث عن عذر :

ولكن جحا فى إحدى الأفكوهات يصوره الأدب الشعبى باحثاً عن عذر . . ومتورطاً باحثاً عن مخرج من مأزق وقع فيه . . صور وحالات مختلفة . .

رآه صاحب بستان أو كما تنطق اللهجة الليبية . . «حوازه» فقبض عليه متهماً جحا وسأله بعد أن قرعه قرعات . .

. . . أيش أدير هنا يا جحا!؟ .

. . . فأجاب مرتبكاً متلعثماً . . باحثاً عن أقرب عذر يخطر على باله وزعم أنه دخل «الحوازه» من شدة دفع الريح فأوقعه الريح العاصف فى هذا البستان . . ثم دحرجه فأمسك بالفاكهة . . . بشدة . . . فقطفت . .

وهنا . . قد تكون . . الأسباب معقولة . . والمعاذير مقبولة . . ولكن إدخال الفاكهة فى الجوالق . . هى المشكلة . . أو الجواب عنها عين الإشكال . . . ومبعث الحيرة والسؤال . . واستمع الرجل لمعاذير الريح وقال : ـ

. . وكيف دخلت الفاكهة فى الشوال ؟ .

فقال جحا . . ببساطة أو سذاجة . . وقد تكون الصراحة من نوع السذاجة . .

. . . هذا ما كنت أفكر فيه . . وهذا ما أبحث له عن عذر . . . اتركنى حتى أفكر فى عذر . . .

وهذه المحاورة فى القالب التى تصور جحا ساذجاً إنما قصد الأديب الشعبى بوصفها تصوير بعض الحالات والنفوس التى قد تتورط وتصدم حتى لا تجد لعملها مبرراً وتضطر أخيراً إلى الصراحة . . ولكن قد تكون الصراحة بعد التورط أحياناً نوعاً من السذاجة .

خطبة جامعة :

الأديب الشعبى المجهول أدخل جحا فى الأسواق . . . ومجالس الصعاليك وأدخله أيضاً مجالس السلطان وأدخله مجالس العلماء . . وزج به فى ورطات وصوره أحياناً حكيماً لبقاً . . سريع البديهة قوى الحجة . . . لاذع النقد . . . مصوب السهام . . راشقاً بالسهام والنبال . . سهام الكلمات . . ونبال التعابير .

وكم صوره الأدب الشعبى خطيباً فوق المنابر . . أو مدرساً فى حلقات العلم . .

وما أكثر ما يدخله رواة الطرائف فى المسجد وحلقات الوعظ . . كما أدخل أبو القاسم الحريـري . . بطل مقاماته . . «أبا زيد» فى المساجد والأسواق . .

ومن طرائف بلاغة جحا فى هذا المجال . .

خطب جحا عند غياب الإمام خطبة جامعة فيها هدف خطبة أبلغ من ديوان ابن نباته . . . ولو دخلت مسابقة الخطابة الجمعية لحازت قصب السبق . .

صعد جحا المنبر وحمد ربه وصلى على نبيه «وأما بعد أيها الناس. . لا غنى شاكر . . ولا فقير صابر . . لعنة الله على الفريقين . . » .

هل سمعت فى حياتك أوجز من هـذه الموعـظة وأبلغ . . تصور حالة بعض المجتمعات. . من هلع الأغنياء وطمع الفقراء . . واضطراب النفوس لا شكر ولا صبر وهذا قلق يضيع المثوبة والأجر .

ولا شك أن الواضع لهذه النكتة . . قصد بها التصوير فى أوجز تعبير . . أدب فكه ساخر . . ساقوه على لسان جحا .

درس :

وما دمنا مع جحا فى المسجد وسمعنا نبرته وخطبته من فوق المنبر فلنستمع إليه فى إحدى حلقاته مدرساً . . أو ناقداً متهكماً كما صوره الأدب الشعبى .

وهذه النادرة يسمعها الناس فى نوادر جحا بالقاهرة ونوادر جحا بطرابلس ونوادر جحا بالمغرب والشام . .

وكثير من النوادر ـ كما أسلفنا القول ـ تجول وترحل بلا «جواز» ولا تأشيرة مرور بل سهل عليها الطيران والاجتياز .

وهل نبعد عن درس جحا . .؟ ونزوغ كعفاريت التلاميذ زعموا أن جحا ألحوا عليه أن يدرس ويلقى درراً من فيض حكمه وشدوا طرف جبته . . فما شد عننونه كالحريرى عندما ارتج عليه . . إنما كان سريع الجواب وسأل فى سخرية . .

هل تعرفوا ما أقول ؟ . . .

فأجابوا . . لا . . وكانت لا طويلة ممططة . .

فقال . . إذاً لا فائدة من أتعابى فى أرض بور . .
وضم جبته وانطلق . . . .

وفى مرة ثانية تصيدوه . . وتحلقوا حوله . . طالبين درس جحا وأعاد السؤال . . هل تعلمون ما أقول . . . ؟
فقالوا . . نعم . . وكانت بنغمة التفخيم والتأكيد . . . .
فقال إذاً لا فائدة من الدرس . . فأنتم تعلمون . . وانطلق أسرع من الجولة الأولى . .

وفى المرة الثالثة . . تآمروا على ألا يفلت منهم جحا . . ولا بد من الدرس الجحوى بأية حيلة وطريقة . .

أفرد ساخر يغلب مجموعاً متحلقاً؟ . . وماذا يصنع الكرسى فى عرصة المسجد ألم يجلجل فيه صوت جحا . . يقال ويقول . . وفيها قولان . . واسمعوا وعوا . . وناهيك بدروس تصدع الروس ولكن لجحا طريقة فى الدرس بها فكاهة ودعابة . . تجعل من الصعب سهلاً . . ومن المغلق مفتحاً . . ومن حوادث

أيامه يتصيد موضوعات . . ويقدم الجد من القول فى قالب فكاهات .

يا جحا . . لا بد من الدرس . . وصاحوا من كل جانب فى المسجد . .

وظنوا أنهم مرغموه . . ولن يجد الآن طريقاً للتفلت والهروب فألقى السؤال المعتاد.

هل تعرفون ما أقول؟ . . .

وكانوا قد اتفقوا على أن يقول فريق نعم . . ويجيب فريق بلا . . وما عسى أن يكون جواب جحا . . ؟ ولما سمع . . نعم من ناحية . . ولا . . من ناحية . . قال . . خلاص . . . وبسم بسمة ساخرة .

اللى يعرف يعلم اللى ما يعرفش . . ولا حاجة لدرس ولا كتاب وطبعاً ما قصد الأديب الشعبى بوضع هذه النادرة إلَّا تصوير الناس فى المجتمع وتقسيمهم على ثلاث :

صنف متعلم لا يريد أن يزيد . . فهو أجوف . . .

ويدعى معرفة كل شىء. وصنف جاهل لا يريد أن يرتوى - فهو صعفوق . وصنف ثالث يريد أن يرتوى ويزداد علماً فهو الناجح . .

وهذه نكتة جحوية رامزة هامزة . . . ولها أيضاً مصدر من الأدب العربى القديم . .

تضاف إلى كثير من النوادر والأدبيات التي وصلت إلى الأدب الشعبى عن طريق المطالعات . . ثم المسامرات والمرويات . . حتى صارت إلى هذا الشكل من النوادر المضافة إلى جحا . . .

اكتفـــاء :

وكما رسم لنا الأدب الشعبى فى ليبيا جحا مدرساً أو متهرباً من الدرس. . . ورسمه. . خطيباً فى إيجاز. . . ومهماز. .

فقد صوره أيضاً صغيراً فى الكتاب . .

وكما أن «الحكمة» والمنطق الفلسفى تلازمانه فى نظراته وتصرفاته وأقواله وإن كانت فى صورة نادرة أو

قهقهة عالية كذلك هو فى صغره . . . وعندما يعلق لوحه فى صدره ليخط عليه آيات قصار من السور كما يصنع طلاب الكتاتيب . .

فقد زعم رواة النوادر من أدباء الشعب أن جحا فى الكتاب وصل لسورة . . «إذا زلزلت الأرض زلزالها . . وأخرجت الأرض أثقالها . . وقال الإنسان ما لها يومئذٍ تحدث أخبارها . . بأن ربَّك أوحى لها يومئذٍ يصدرُ الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم . . فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره . . ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » . اكتفى الفيلسوف الصغير بهذا المقدار وأبى أن يذهب إلى الكتاب ومواصلة الحفظ والتلاوة . . . وكلما حاول والده إغراءه . . أبى . . . وليس الغرابة فى الهروب من الكتاب خوفاً من العصا أو تأثيراً للكسل . . بل الغرابة وبيت القصيد أن جحا قال : لقد اكتفيت بهذا ووصلت إلى مفتاح السر وميزان الطيب من الخبيث . . فى هذه الآية الجامعة . . فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره الآية ولا شك . . . إن هذا الجواب أو المبرر لم يعرفه جحا ولم

ينطق به فى صباه . . إنما هى أطروفة من وضع بعض علماء الدين والوعاظ على لسان جحا . .

ولا شك أيضاً . . إن فى هذه الآية مقياساً وميزاناً وهى من الآيات الجامعات . . ولكن هل يستطيع طفل فى الكتاب أن يفسر الآية تفسير العلماء؟ . . إنما هى من المرويات المقصود بها الإبانة والترغيب . . . وكم وضع المشايخ والوعاظ من أساليب فيها نوادر وحكايات ألم يكن لهم فى القصص نصيب حتى إن المبالغات منهم فى باب الترغيب والترهيب لا تحصى ولا تعد .

ومهما يكن من أمر . . فقد دخل جحا حتى فى خيال القصاص والوعاظ وكان له فى سجعهم وحماسهم ثروة .

وجه الشيطان :

وجلس جحا ذات مرة فى درسه . . وكان يمزج الحقيقة فى قالب من المزح الهادف والجد فى الهزل . . . ولكن من بين الكلمات ، ولا أقول السطور . . كانت حقائق . . ودقائق . .

وكما يبتلى مدرسو المساجد بعديد من الأسئلة

المنوعة كأن المدرس قادر على كل جواب . . حتى فى علوم المغيبات وما وراء الاسجاف .

ولكن جحا هنا يستعين بالفكاهة . . وتسعفه ملكته الساخرة لكل طارىء من غريبات الأسئلة . .

ها هو يبح صوته فى الوعظ والإرشاد . . وقال الله وقال الرسول . . وقال الأولون . . و و . .

وبعد ساعة من التحليل والتعليل إذا بصوت يرتفع بالسؤال . . من متخذلق . . لا يخلو الأمر إما أن يكون جاهلاً وهذا مقدار إدراكه . . وإما أن يكون متحذلقاً يقصد التعجيز وإظهار جحا المدرس بمظهر العاجز عن الجواب ويريد إحراجه . . على كل حال . كان السؤال هكذا . . بعد أن أنصت جحا :

يا جحا كيف وجه الشيطان . . . صفه لنا . .

ولم يتحير جحا فقد تعود على مثل هذه الأسئلة واستعد لها بالأجوبة المفحمة التى تغرق السائل فى الحيرة . . . ولم يتحير جحا تحير الصائغ عندما طلبت منه المرأة نقش صورة العفريت على الخاتم حتى جاءته

بشخص الجاحظ بل اشرأب جحا بعنقه وقال . . وهو يبحث بعينيه وإصبعه فى الجالسين أمامه . . من السائل عن وجه الشيطان؟ .

قال صاحبه . . أنا . . صاحب السؤال .

وأمره جحا أن يقف ليتمكن من رؤيته . . وأخذ جحا يتفرس فيه متأملاً . . وبعد هنيهة من الصمت العميق . . . همهم جحا وبحلق وقال مشيراً بإصبعه إلى السائل هكذا وجه الشيطان . . صورة طبق الأصل . . من رآكما ظنكما توأمين . .

وخجل الرجل وجلس أو انهار بين ضحكات الجالسين ونجا جحا من ورطة السؤال كعادته بلباقة .

تفسير الأحلام :

وهذا ميدان يضربون فيه بكثير من السهام . . وقد تكون سهاماً مسمومة . . . وتأويلات لحمتها وسديمها من الخرافات وطالما اكتظت العقول والأذهان بتفسير وتأويل أضغاث الأحلام . . قد يكون سببها أكلة ثقيلة . . . أو عقول مضطربة كليلة أو تمنيات مكبوتة . . أو شهوات

متأججة أو رغبات حبيسة لا تنطلق إلَّا عند المنام ولكن كثير من طغام الجهال يتخذ من تفسير الأحلام وتأويلها مرتزقاً أو تدجيلاً ليظهر بمظهر العليم ببواطن الأمور أو ضرب من الولاية إلى غير ذلك من عبث بالناس . .

وجحا كمدرس وعالم صوره الأدب الشعبى يقع فى قبضة السائلين عن تأويل الأحلام وتفسيرها . . أحلام عجيبة . . فهل عندك جواب يا جحا . . أسعفنا . . . وسأله رجل يا جحا . . أتستطيع أن تفسر الأحلام . . لقد رأيت أنى أركب حصاناً أبيض بذيل أخضر وعلى ملأ من الناس أجابه جحا ساخراً . . ببساطة . . لعله رأس فجل . . . هو الحصان الأبيض ذو الذيل الأخضر . .

وفى هذه النادرة وفى صياغتها إنما قصد الأديب الشعبى المجهول أن يهزأ بمفسرى الأحلام هزأ فى قالب نادرة يضفيها إلى جحا الذى أصبح مثقلاً بالروايات حتى يكاد يتقوس ظهره من شدة ما حملوه . .

تصوير الطمع . . أو حلم جحا :

فى الأطروفة السابقة صور جحا يفسر الأحلام بطريقته اللاذعة الساخرة . .

ولكن فى هذه المرة تقع شخصية جحا فى شباك المصورين الهازئين . . وهكذا كما رأينا جحا تحوط به النقائض وقد تتجه الطرائف به اتجاهاً منوّعاً . . . قد يصل إلى الاضطراب والتناقض . . . ويتأرجح بين الحكمة الصائبة والتغفيل .

وما المقصود طبعاً . . . جحا ذاته . . . إنما رأى الأدب الشعبى أن يتخذ من جحا مطية للتعبير ولوحة للتلوين والتصوير فكيف يصوره الساخرون فى بلهه وطمعه . .

* حلم جحا أن شخصاً تكرم عليه بعطية فيها نفحة من المال وعدد الدنانير كان تسعة وتسعين .

ولكن الطمع أو قل الجشع دفعه إلى أن يقول . خليها مائة كاملة . . لم تنقص الدينار؟ . . . . فرفض واهب الدنانير . . وتململ جحا فى منامه . . وصحا من

أحلامه.. فوجد يده مبسوطة.. على الفراش فارغة.. وليس بهـا حتى دانق ولاسحتـوت. فـأغلق عينيـه مسرعاً... ومـد يده متلهفـاً.. صائحـاً هات حتى تسعين.. ما فيش فرق.. ما بين الخيرين حساب.

وهذه قصة فى وضعها أو هدفها ترمـز للذين قد يضيعون الفرص بأطماعهم .. ويتركون البعض لحيازة الكل .. ثم يضيع البعض ويندمون ولات حين مندم .

شهادة زور :

ونوادر جحا تقتحم كل مجال .. كما رأينا فى السوق ودرس المسجد أو خطبة الجمعة أو حياة البيت.. نقد ساخر وتصوير أدبى فكه..

وهل يترك الأدب الشعبى عن طريق الفكاهة المحاكم وما بها من حيل شهاد الزور... ومن وراء شهادة الزور قصص وغصص؟.. يقول رواة الأدب الشعبى فى ليبيا طلب جار جحا أن يشهد له زوراً .. وأعطاه أجره ـ وطبعاً لا بد لشهادة الزور من أجر. وأجور البهتان دائماً مرتفعة على حساب الضمائر والذمم والوجدان.. وأخذ جحا

أجره مقدماً. . وقلما يرضى شاهد الزور إلَّا بأجر مقدم للضمان . . فلا قيمة للديون ولا للأيمان والعهود فى عرف الزور. . . وذهب الشيخ جحا يخب فى قفطانه ووقف أمام القاضى وبعد أن حلف اليمين مؤكداً أن يقول الحق. . وليس غير الحق قال. . . جانى هذا وطلب منى شهادة وأقسمت له أن أقول لكم ما يقوله لى . . ونسيت الباقى وعليه أن يكمل . .

وشهدت بهذا مجاناً . . وهذه نقوده فليأخذها فقام صاحبه يندب صائحاً . . جحا كذاب . . فقال جحا . . . فى هدوء . . . وبساطة .

إن كان هذا عندكم كذب اللهم لا تجعلنى صادقاً .

تأديب الطماع أو طناجر جحا :

وكما أدب جحا شاهد الزور فى المحاكم وهـزأ بالطماعين فى الأسواق نراه هنا فى هذه النادرة يلجأ لحيلة مشهورة وسارت مسير الأمثال . . . يرويها سمار الأدبـاء فى مجالسهم بشتى اللهجـات . . . وتشيعها

ضحكات وقرقرات ومن منا لم يسمع بطناجر جحا.. التى تلد بلا نفاس ولا مخاض....

فقد استعار من جاره «طنجرة».. ورد معها «طنجرة» صغيرة.. وزعم لجاره الطماع أنها ولدت.. ومبارك المزيود فأخذها الجار بلا إطالة الجدال... ولا إلقاء حتى سؤال.. وفى المرة الثالثة طلب جحا طنجرة.. فأسرع الجار وأعطاه بدل الواحدة اثنتين.. كبيرتين من نحاس رنان.. وأخذهما جحا.. ورمى بهما فى قعر الدار.. وسكت.. وطال الانتظار.. وماطل فى ردهما.

وقال صاحبه.. وين الأمانة؟..

فقال جحا صاحب الاعتذارات الغريبة.. وهو يخبط كفاً على كف أو يقلب يديه كأنه صاحب الجنة التى غدت أطلالاً.. (ازحرت).. فماتت.. جاءها أجلها فى النفاس.

فقال الرجل... سبحان الله.. كيف.. هل الطناجر (تزحر).. هل يأتيها المخاض والنفاس.. اسمعوا أيها

النـاس فقال جحـا فكيف قبلت المولـود. . وفرحت بصغيرها عندما جاءك من استطاع أن يلد. . فمن شيمته المخاض. .

حجا والحمار :

وهذه قصة جحوية تسمعها فى الأدب الشعبى بليبيا. . وتروى فى كثير من البلاد العربية . . وتضاف إلى جحا العربى . . وجحا التركى . . وهى أيضاً من الشعبيات المروية فى المجالس ولها منحدر أو مرجع من الأدب المكتوب . .

وتسمع فى الأمثال الشعبية . . فلان احتار كيف جحا والحمار . . . أى ماذا يصنع .

ـ أراد جحا أن يركب الحمار هو وولده . . ونظره المارة . . فقالوا . . .

جحا لا رحمة عنده . . . لا يعرف الرفق بالحيوان . . فأنزل جحـا ولده . . وجعله يمشى وراء . . وركب هو . . وما مشى الحمار خطوات . . حتى قال المارة . . أو الجلاس من الناس . .

أرأيتم جحا . . لا شفقة عنده بولده . . الرجل يركب والولد الصغير يمشى على رجليه .

فنـزل . . وأركب ولده الحمـار . . وجعل يمشى وراء . . حا . . حا . . حا . . ار . . ار . . ار . .

فـقـال النـاس. . . . أهــه . . أرأيـتـم . . والله عجب . . . زمان فسد . لا حياء . . . تربية فاسدة ـ الصغير مدلل يركب والرجل أكبر سناً يمشى على أقدامه كأنه خادم مطيع . . فاحتار جحا إزاء هذه النظرات والتعليقات . . . وأنزل الـولد . . وأصبـح يمشى هو والحمار والولد . . فهل يسلم من التقولات؟ . .

بل إنها تقولات ساخرة رمى فيها جحا بالعته والبله . . أرأيتم . . يمشى جحا . . ولده على الأقدام . . والحمار فارغ . . كأنه يرتاض . . . لعل الحمار فى إجازة . . أهه . . جحا مغفل . . يمشى على كرعيه .

وهكذا فى جميع الحالات لم يسلم جحا من قوارص الناس .

إما مغفل أو جامد العاطفة.. أو أمعة لا يحترمه ابنه.. وهل ترمز هذه الواقعة.. إلَّا لصورة الحيرة مع الناس.. لا راحة للناس.. فضوليون.. في كل شيء.. يتدخلون وعلى كل شيء يعلقون.. حتى فيما لا يهمهم.. في عصر جحا وحماره.. وفي كل عصر.. حتى عصر الطائرات والصاروخ والقمر الصناعي.. هي.. هي.. التصرفات والعادات وحشر الأنوف.. وتطاول الألسن وقوارص التعليقات والنظرات...

جحا واليهودي :

واليهودي في الأدب الشعبي يصوره كعادته مكاراً.. خبيثاً.. يضمر الشر والضر.. وهناك كثير من الأقاصيص والنوادر تعطي صورة عن تصرفات اليهود الممتلئة خبثاً ومكراً..

ومن هذا القبيل ما تصوره هذه القصة التي أراد فيها جحا أن ينتقم من مكر اليهودي وخبثه وأن يكيل له من جنس عمله وهذه قصة تحكيها الجدات ويرويها الناس

فى سمرهم . ايش صنع جحا مع اليهودى . . والقصة أو الخرافة طويلة نحاول تلخيصها بقدر الإمكان . .

أخذ جحا يدلل على نفسه فاشتراه أو أجره يهودى على شريطة أن يبقى عنده عاماً كاملاً . . وهذا شرط جحا ومن يمل من صاحبه قبل نهاية العام يأخذ سيراً من جلد صاحبه من قمة رأسه إلى أخمص قدمه . . شرط ولا شروط المعاهدات الأجنبية فى عصرنا الحديث . . وأطلق جحا على نفسه لقباً غريباً «زرمللو» وقال اليهودى . . امش اقلب الجنان يا جحا والمراد هنا بالقلب . . العزق والخدمة . . . فقلب جحا الجنان رأساً على عقب . . عقب الأشجار وجعل سفل الجنان أعلاه . .

وتورط اليهودى . . وتحملها مكرة . . بكره . . وأعطاه ماشية وقال . . . يا جحا «منشر» الغنم . . بمعنى ارعها فى المرعى .

فساق جحا الغنم . . وذبحها عن بكرة أبيها وأمها «ونشرها» على السدرة . .

ووحوح اليهودى . . وهـو ينظر إلى أغنـامه وقـد أصبحت فى عالم آخر . . ما هذا يا جحا . . . .

فقال . . أبعد هذا النشر . . . نشر . . ؟ .

وحاول أن يطرده . . وتذكر شرط العام . . والعام طويل وتذكر سير الجلد . . . فتحسس رأسه . . وتجرعها صابراً على مكر وكره . .

وبعد أيام قال اليهودى . . يا جحا . . عندك البقر فاذهب واسقيه ورويه . .

فذهب جحا يذبح الأبقار . . ويغرسها فى الرمال . . إلَّا ثور واحد غرسه فى الرمل كاملاً . . وزعم أن الأبقار غاصت . . ورويت فى الرمال . . وفقد اليهودى بقره . . وأغنامه . . . وجنانه . . .

وقال . . يا جحا هناك عرس سأذهب إليه . . وهناك سمر وغناء وطرب وخمر ورقص . . فسـأقضى الليل هناك . . ـ رأسك ورأس البـاب ـ لا يغادر رأسـك الباب . . وهز جحا رأسه وقد أضمر أمراً وطالت سهرة اليهودى وحلت ساعة النوم وقبل أن يأخذ جحا النعاس

أزال جحا مزلاج الباب وحمله فوق رأسه. . وذهب به إلى صاحبه وترك الدار نهباً لكل طارق. . ومار. . . وصاح . . ما هذا . . ؟. فأجاب رأسى ورأس الباب هكذا كما أمرت وألححت . . هذا رأسى والباب.

. . . وأخيراً لم يجد اليهودى إلَّا الحمار والبردعة وأطفاله وأمه العجوز . .

وطلب من جحا أن يحافظ على الأطفال فهم يريدون « التخفف » والدنيا برده «يا جحا» «لصق» الأولاد على الحيط ويا للمساكين الأطفال. . عندما يطبق جحا حرفية الأمر فألصقتـهم فعلاً على الحائط . . وجاء اليهودى يخبط ويلعن . . وماذا يصنع والشرط عام . . وما أطول العام . . . أو سير من الجلد من الرأس إلى الأقدام فلم يبق إلَّا الهجرة وترك البلاد . . واتفق التاجر اليهودى مع أمه العجوز . . . وتراطنوا ليلاً بمزيج من العبارات . . الفرار . . . الفرار . . من صنيع جحا . . وأعد الحمار والخرج وبرميلاً صغيراً من الزيت والسمن وفى غفلة وخفة . . دخل جحا متكوراً . . . فى إحدى نواحى

الخرج بعد أن دلق السمن والزيت . . وسار التاجر . . وهو يحمد ربه أن خلص من جحا ومكره ومتاعبه.

وفى الطريق طال حصار جحا وأمسك . . ولا فائدة وعندما شاهدت العجوز اليهودية السائل من الخرج . . ظنته فى الظلام . . الزيت يبدد . . وصاحت وأخذت تمسح به وتلمع الشعر المنكوش . . وتدهن . . فائدة بدل أن يتبدد . . ولكن هناك حركة فى الخرج . . عجبوا . . هل برميل الزيت الصغير يتحرك؟ . . وقفز جحا من الخرج . . كعفريت خرج من قمقم. وجان انطلق بعد حبس . .

وفى الليل . . عند حافة البئر . . اتفق اليهودى مع أمه العجوز على أن ينام جحا ويدحرجاه فى البئر ويخلصان من عنائه وبلائه . . وسمع جحا الهمسات . . . فبدل مكانه ونام بجوار اليهودى وفى آخر الليل . . غمز اليهودى جاره معتقداً أنها أمه . . وحسب الاتفاق ما عليها إلَّا أن تلكز جارها . . . فيدحرج هاوياً فى البئر . . وما إن مد اليهودى يده غامزاً . . . حتى نفذ جاره الاتفاق

ودحرج العجوز وهوت فى قعر البئر فى دوى وصراخ . . وقام اليهودى قائلاً ارتحنا من جحا . . وقام جحا وقال . . . بل ارتحنا من العجوز . . وأخيراً . . . كسب جحا سير الجلد من اليهودى قبل انقضاء العام . .

. . هذه الخرافة والأسطورة . . طويلة وبها يتفنن خيال القاص الشعبى . . ومقصدها كما تظهر منها . . إبانة المكر الذى يصنعه اليهودى وما قصد جحا إلاّ المكر . . ومقابلته بأشدّ منه.

أهذا شيخكم ؟.

وتروى الأقاصيص الشعبية عن جحا هذه النادرة الغريبة . . فقد رمى بقتيل فى البئر بعد أن خنقه ويزعمون أنه كان مؤذناً . . وكشفت أمه الأمر فهالها ذلك وأشفقت عليه أن ينكشف أمره . . ودفعها الحنان الغريزى إلى إخراج القتيل وخنق كبش ووضعه فى البئر . . وأمرت جحا أن ينام . . ثم أيقظته فى الصباح . . فوجد ساحة البيت مليئة طرقاتها بالفول . . و « العصبان » فقال ما هذا ؟ . .

قالت بالأمس أمطرت السماء فولا «وعصباناً» وصدق ذلك لبلاهته . . وما أكثر النوادر التى تظهره ذكياً سميدعياً . والطرائف والأقاصيص التى يبدو فيها بليداً غبياً . .

وكان لا بد أن يبحث أهل القتيل عنه . . وخاصة المؤذن فى البلدة . . ألم يفتقده أهله . . يفتقده الناس عند أوقات الصلاة .

فقال جحا فى بيتنا قتيل فى البئر . . فذهبوا وعثروا على الكبش الذبيح . . فصاح فى قعر البئر . . ها هو أشيخكم بقرون!؟ . وكانت ضحكات ساخرة من بلاهة جحا . . ثم زادتها سخرية عندما أردف جحا مؤكداً أنه قتله ليلة الأمس عندما أمطرت السماء فولا وعصباناً . . . هذه رواية مشهورة فى الأدب الشعبى بليبيا . ولها أصل من الأدب العربى القديم . . كيف ذاك . . وكيف رواها الأقدمون؟ . .

نجد أحمد الميدانى فى كتابه الأمثال . . وقد ألف فى القرن السادس الهجرى يقول عن جحا . .

من حمقه أنه خرج من منزله يوماً فى الغلس فعثر فى دهليز منزله بقتيل فبصر به وجره إلى بئر منزله فألقاه فيها . . غير أن أباه أخرجه . . .

وخنق كبشاً وألقاه فى البئر . . وأهل القتيل طافوا فى سكة الكوفة فلقيهم جحا . . وقال . .

فى دارنا رجل قتيل وانظروا أهو صاحبكم . . وناداهم قائلاً ألصاحبكم قرون؟ . . .

ولا شك أن الرواية الشعبية مأخوذة مع التحريف من أمثال الميدانى غير أن الأديب الشعبى جعل من جحا قاتلاً والميدانى برأ ساحته من تهمة القتل ألم يبرىء ساحته من الاختفاء والتستر وكلا الروايتين تبين حمق جحا أو بلاهته. والميدانى يرى أن العطف والحنان كان من والد جحا. . ورواية الأدب الشعبى. . ترى الحنان والعطف من الأم. . ومن الطبيعى أن الأمهات أكثر رقة وحناناً حتى إنها اضطرت إلى ذبح كبش. . واللجوء إلى اختلاقها قصة المطر العجيبة. .

ومهما يكن من أمر فإنها من اختلاقات الناس على

جحا المسكين وحتى الميدانى أبى أن يمحص أو يفحص بل ساقها على أنها من الواقع المعقول. . ومن باب النوادر والطرائف تقبل هذه القصة أما من أبواب أخرى فليس لها قبول ولا دخول .

رأسك والباب :

وتذهب أم جحا إلى عرس. . وما أكثر غياب النساء فى الأعراس . . وخاصة فى بلد محجب تكون الأعراس فرصة للتفرج والغياب . .

وألحت عليه أن يرعى المنزل وقالت :

هه . . رأسك ورأس الباب يا جحى . . وطال الانتظار وقبل أن يغلبه النعاس. . تذكر «الحرفية» ورأى أن يطبق الأمر حرفياً . . بلا عقوق . . فخلع الباب وحمله فوق رأسه . . ولا بد أن يكون رأسه كشمشون الجبار . . أو يكون الباب من خشب زهيد أو ساج يمكن أن ينطلق به جحا سريعاً . .

وفى زحمة العرس كان يشق الطريق مع الباب . .

وصاحت أم جحا ايش هذا!؟. السراق لازم يسرقونا يا خيبة أملك يا جحا . .

وصاح . . اطمئنى . . هذا رأسى والباب .

والملاحظ أنه كما سبق أن نشرنا أضيف هذا الصنيع لجحا مع اليهودى . . وإن كان أكثر الروايات الشعبية ترى أن جحا صنع حكاية خلع الباب مع أمه . . والذى يهمنا فى الملاحظة أكثر . . أنها كالنادرة التى سبقت فى الصفحة الماضية . . أن لها من الأدب العربى القديم أصلاً ومفصلاً . . فقد ذكرها صاحب كتاب نثر الدرر وهو من أدباء القرن الخامس الهجرى . .

ومن هذه الرواية انحدرت على ألسنة الناس وسارت حتى صارت من مسامرات الأدب الشعبى فى ليبيا وفى الأمثال بليبيا . . «رأسك ورأس الباب يا جحا» .

وأيضاً لعل قصد الواضع لهذه النادرة أن يتهكم على الحرفية وتطبيق الكلام بدون تصرف ولا تفهم .

كم جحا :

ويذهب جحا إلى وليمة فى ثياب رثة مهملة . . . فهو

هنا عالم فاضل لا يهمه مظهر الشكل . . ولا يعنى بالثياب
ولكن عند الباب . . عندما شاهدوا ثيابه . . طردوه وأبوا أن
يسمحوا له بالمرور.

فعلمه فى صدره . . وفكره داخل دماغه . . وليست
المظاهر هنا إلَّا بعاطر الثياب وفاخر الديباج . .
وحاول . . فما كانت محاولاته إلَّا عبثاً . .

وأدخل من هو أقل علماً . . بل حتى الفارغين
الأجاوف . . وبحلق . . وسرح بأصابعه فى لحيته
الطويلة . . ثم همهم . . وعاد أدراجه . . واستعار ثياباً
زاهية فاخرة . . عاطرة مبرقشة . . وجاء . . . فأفسح له
الطريق . . ودخل بين الاحترام والانحناء . . وجلس فى
الصدارة . . وعندما قدمت صحاف الطعام وفاح
الشواء . . وتصاعدت أبخرة الحساء . . مد الناس
أيديهم . . أما هو فكان قد أصر على ألا تمر الحادثة بلا
نكتة جحوية . . فغمس كمه فى الطبق وقال . . كل يا
كمى . . . فما كان الإكرام إلَّا لك .

وهذه النادرة الهادفة . . تروى أيضاً عن غير جحا وإن كان الأدب الشعبى يصر على إضافتها لجحا . .

وتضاف فى الأدب القديم إلى العالم «الشعبى» فى أوائل القرن الثانى . . وإلى الشيخ حسن الطويل فى مجلس الخديو . .

وتروى قصة الكم . . بأشكال وأنواع . . ومهما يكن من أمر فإنها انتقاد لمن يهتم بالشكل دون الجوهر . . وبالمظاهر يغتر ولا يقدر الحقائق . . وكم من أكمام فى شتى العصور والأزمان ولو أردنا أن نغمس الأكمام لتشوه كثير من الناس ولكن أين جحا؟ .

حمار الذهب :

عرف الأدب الشعبى بليبيا جحا بطلاً فى فنون مختلفة من التصوير الأدبى . .

فهو تارة بطل فى النوادر . . . وتارة بطل فى القصة . . بأنواعها القصة ذات الحوار والقصة الموجزة . . والقصة الطويلة . . والقصة ذات الرمز والهمز .

وأيضاً عرفوا جحا فى ميدان الخرافة . . والأسطورة وناهيك بالأمثال . . وكما هى العادة . . لكل مثل قصة وواقع . . ومعنى من المعانى . . أو ما يعبر عنه فى الأمثال عند دراستها . . بالمورد والمضرب . .

ولئلا يطول بنا البحث فى منحنيات الأدب الشعبى ودهاليزه . . فإننا نشير هنا إلى أسطورة من الأساطير المنسوبة إلى جحا يرويها السمار والقصاصون فى ليبيا . . . زعموا أن جحا باع الحمار الهزيل وزعم للناس أنه يلد الذهب فشروه بثمن باهظ . . ولست أدرى . . ولا راوى الأسطورة يدرى . . كيف اقتنع الناس بأن الحمار يلد الذهب . . لعلها مأخوذة من أسطورة كتب المطالعات . . الدجاجة التى تلد الذهب ويصدقها التلاميذ والصغار.

المهم . . لم يجد الشارى إلاَّ الروث والرفس والنهيق وفى المرة الثانية . أيضاً انطلى خداع جحا على المبتاعين وهو يزعم لهم أن عنده إبريقاً يسقط منه الإدام واللحم . . وهذه كلها أسطورة فيها صور فكاهية تصور

حالة الطماعين وخداع جحا لهم . . وأكرم به من خداع يقع ضحيته الطماعون . .

أين الحمار ؟ :

ولم ترحم هذه النوادر والأساطير جحا فقد تكاثرت عليه حتى كادت تردمه فى أكوام من المبالغات التى تدل على بله وعته . . دعك من نوادر الذكاء والألمعية . . فإن فيها لمعات مضيئات من قبسات الذكاء والفطنة والدهاء . . ودعك من الحكمة التى فيها راشقات من السهام . . ومن رشيق العبارات . . إنها بالنسبة للأساطير الأخرى شىء قليل . . وهل يعقل أن نقبل مثل هذه النادرة من غير أن تكون رائحة الاختلاق ظاهرة واضحة . .

كان يسوق جحا عشرة من الحمير ويركب أحد الحمر . . وأخذ يعدها فنقص عند الحساب واحد لأنه لم يحسب ما امتطاه . . . ولم يكن عند الحسبان . . . فنزل من على ظهر الحمار . . وأعاد العد والتكرار . . فوجدها عشراً كاملة . . فاطمأن وعاد للركوب . . وأصابه وسواس

العد . . فوجدها تسعاً . . وهكذا دواليك . . لو مشى كانت كاملة . . . وعند الركوب ناقصة . . فآثر المشى وقال . . لا بد أن أتحمل المشى وإلا ضاع حمار.

إيجــــاز :

جحا فى هذه المرة صاحب بلاغة إيجازية . . وخير الكلام ما قل ودل . . . وكثير من المطولات والمقدمات ممكن إلمامه وفى الإلمامة والإضمامة أحياناً ما لا تجده فى البسط والعرض والإطناب . . . والأدب الشعبى فى ليبيا غنية أمثاله بالإيجاز وتحبيذ الإيجاز ومن أمثالهم . . (كثرة الكلام تضييع الفائدة . .).

وإيجاز واختصار وخفة حتى فى الأزمان والأوقات . . يقولون (ارحم من زار وخفف . .).

هل نتكلم على الإيجاز ونتهرب عن الإطناب والسربلة وأين حديث جحا من عالم الإيجاز ؟.

زعموا . . أن جحا قال من مأثوراته . . عندما استدرجوه ليقص كيف مات والده . . وكيف مرض . .

وعاده الزوار . . وكيف أحضر الدواء . . وكيف بلغت الروح الحلقوم .

فقال . . لأنه أدرك أن الإطناب مضيعة . . والثرثرة هباء . طق مات . . . وأصبح حديث جحا مثلاً يضرب فى دنيا الإيجاز كناية عن الاكتفاء بالخلاصة بدل اللف والدوران . . وقطع أميال فى المشوار . . ومن حسن الإيجاز أن تكتفى بمثل واحد عن حب جحا للإيجاز يضاف إلى سابقة مثله . . يوسف راح ولقاه بوه . . كلاهما من مضمون واحد وإن اختلفت طرق الروايات . .

أين القط أو أين اللحم ؟ :

والمنطق يستعمله جحا حتى فى أبسط الأشياء . . وقد تبنى على أبسط الأشياء أخطر الأمور . . . فأقة من اللحم ليس من الغريب أن تؤكل أو تسرق . . أو أن يأكلها قط فهذا أيضاً ليس من الغريب المستغرب . . أما أن يكون وزن القط أقة حتى بعد هضمه لأقة من اللحم فهو من أغرب الغرائب . . وعجيب العجيبات وخاصة عندما

شك الرجل فى سيرة زوجه . . هل هناك رائحة خيانة تفوح رغم أن القط يموء فى كفة الميزان . . ولو ينطق لقال إنه برىء من التهمة .

وهل فهم القارىء قصة القط واللحم . . فقد زعموا أن جحا أحضر أقة من اللحم فأكلتها زوجته أو أعطتها لمن تحب . . ثم جاء فقالت أكل القط اللحم فوزنه فوجده أقة . . . فكان هذا السؤال إن كان هـذا القط فأين اللحم؟ . . وإن كان هذا اللحم فأين القط!؟ سؤال معقول . . عند الحيـرة والاستغراب فليس خيـر من المنطق يسعف بالجواب . .

حادثة صغيرة . . أو كذبة بلقاء . . قد تنبنى عليها أشياء وأشياء وقد غدا هذا السؤال مثلاً جحـوياً من الأمثال .

أما . . وأما . . وأما:

وحكموا على جحا أن يعلم فرساً الكتابة والقراءة في ثلاث سنوات ولم يقبل أحد من أهل البلاد الشرط إلَّا جحا . . وإن لم يعلم الفرس الكتابة والقراءة . . فالويل

له والثبور . . وإن علمه فله جائزة وما يريد وقال الناس عجباً أجن جحا؟ . أيعلم الفرس فى ثلاث سنوات . . . ومن آلاف السنين ما سمعنا فرساً يقرأ ويكتب وقد يطرب الفرس وكل الخيول تطرب للموسيقى . . أما القراءة والكتابة؟ . . أما أن يمسك القلم ويحبر الأوراق . . فقد حطم جحا نفسه . . فقال لهم . . قبلت الشرط . . وليس لى إلَّا أن أقول أما وأما وأما . وما فسرها لهم . . إلَّا بعد إلحاح . . .

فى مدة الشرط . . أما أن يذهب صاحبه ويرتاح من الشرط والمشروط . . وأما أن ينفق الفرس . . وأما أن يترك البلد والحياة .

لكل مدبر فائدة :

ومر جحا على قوم جالسين وأراد أن يظهر إحدى نظراته الفلسفية العميقة . . ونظرته الساخرة الدارسة . . وذلك كعادته فى قالب فكه وفى صورة سؤال قد يبدو فيه العبث أو المزاح . . ولكن من وراء السؤال والنظرة المازحة . . الجد كل الجد .

قال جحا بعد أن أطلق تحية السلام . .

من منكم أيها القوم يدبر دبارة وليس له فيها مأرب أو فائدة شخصية . . رأى لمجرد الرأى . . وليأخذ حمارى هل هناك مدبر لا يقصد فائدة أو عائدة من أدلاء رأيه وتدبيره؟ .

وسكتوا كأنهم يهضمون السؤال . . وقفز أحـدهم مشيراً أنا . . . يا جحا . . . أدبر لك رأياً ولا فائدة تعود على من التدبير إنما لمجرد الـرأى فقط . . ومجرد النصح . . .

فضحك جحا . . ولمعت عيناه بالسخرية وامتلأت أشداقه بالقهقهة ها . . ها . . هى . . ها . . هى . .

وأردف جحا قائلاً :

بل أنت ما تطوعت للتدبير وإدلاء الرأى والمشورة إلَّا طمعاً فى أخذ الحمار هدية وعطية .

ومرّ جحا وحماره . . والقوم ينظرون . . بين مصدق ومندهش وحائر . . ومتأمل كلامه . .

حقاً . . لقد صدق جحا . . وسيبقى الحمار لديه لأنه لا يبدى أى إنسان رأياً أو نصيحة إلَّا وله من فوائد ذلك نصيب وأسهم .

يبدى الإنسان رأياً ونصيحة ومشورة. . قد يكون ذلك عاطفة وخلقاً. . ولكن هذا أيضاً فيه منفعة للناصح وصاحب المشورة. .

أهناك فى دنيا الإنسان إلَّا الأغراض ونفع النفس . . من طريق قريب أو من طريق بعيد . . وقد يكون النفع عن طريق الآراء والنصح نفعاً خاصاً . . أو نفعاً عاماً . . وبصورة مباشرة . . أو بصورة غير مباشرة .

وحتى العابدين الزاهدين . . والوعاظ المرشدين لا يبدون التدبير والمشورة فى التعفف والتصوف . . إلَّا قصداً فى منفعة أسمى . . وأدوم وأرقى . . .

نفع دنيوى . . أو نفع أخروى . . نفع مادى . . أو نفع روحى . . نفع يتعلق بفرد . . أو لمجموع . . هى فلسفة الحياة والعيش . . سواء العيش الشريف . . أو العيش غير النظيف . . علم العلماء . . أو خبث

الخبثاء . . وحكمة الحكماء . . كله تدبير فيه نفع للمدبر بالآراء . . الخطيب والواعظ والكاتب والممثل . . والشحاذ . . واللص . . والمخترع والمتخم والجائع والراقصة . . لا يصدر أحد من هؤلاء تدبيراً ومشورة ورأياً مهما يكن . . إلَّا من وراء ذلك كله منفعة . . غير أن المقاييس تختلف . . كالقيم تختلف وأسماها . . وأعلاها . . ما كانت فيها منفعة للإنسان من حيث هو إنسان . . وللقيم والمبادىء من حيث هى قيم ومبادىء . . سواء كان نفعاً موقتاً . . أو نفعاً سرمدياً خالداً . .

خلاصة هذه النظرة الفاحصة . . إن كل تدبير يصدر من إنسان فيه نفع ظاهرى أو ضمنى فى صورة خاصة أو بشكل عام . وهل أراد جحا فى قصة حماره بعد هذا أن يشير إلى فلسفة الذاتية بكل الوسائل . .

لقد سبق جحا . . حمار توفيق الحكم . أو حمار الكاتب الأسبانى . . فالكاتب القصصى فى عصرنا جعل من حماره فيلسوفاً أوحى إليه بتراث فنى .

ولكن جحا منذ قرون له محاورات مع حماره تارة يزج به فى مأزق كما رأينا فى قصته مع عيون الناس والفضوليين . . وتارة يهرب فى خرج مع اليهودى الآبق وتارة . . وتارة . .

إنها فلسفة جحا . . كما صورها الأدب الشعبى ذات طابع مرح فكه . . وذات ألوان وأصباغ . . وصحاف وطباق على مائدة الفن التصويرى فيها غذاء وارتواء .

تفاخر جحا :

وأخذ جحا يرهف سمعه فتصل إليه أصوات مفخمة بها مفاخرات ومضاربات فى سوق العنجهية . . ونسى الإنسان أن أصله من صلصال كالفخار . . . وأنه «من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب » أنا وأنا وتغطرس الناس فلان . . وعلنان وترنان . . . ومقايس من الأنساب والأحساب كأنها المقامرة والأزلام . . وكان قيمة الإنسان وقفاً على المفاخرة والمباهاة . . . وهل يضيع جحا فى زحمة الناس . . وهل لا يفخم نفسه؟ . .

قبائلٍ . . وعصبيات ومسكين جحا . . ليس له فى البلد إلّا هو وأمه العجوز . .

فقال فى أسلوب ساخر . . كى يمارى ويفاخر . . دونكم . . . دعوكم من المباهاة . . . فأنا أيضاً لى تعداد وذيول اسمعوا . .

قالوا . . ومن لك يا جحا . . فى سوق المفاخرة وليس لك عدد عديد؟ .

قال ومد أصابعه وسرد فى سرعة خاطفة .

جحا . . وجحوان . . وعبد الله . . وجحى . . والعجوز والوالدة . . والأم . . وأنى . . . .

يروى الناس قصة المفاخرة فى فكاهة مشهورة . . وكل ما سقناه هنا ملتقط من ألسن الناس . . فهى مصادر للأدب الشعبى فيه الطريف لولا المسخ والنسيان والتحريف .

خاتم حجا :

وفى هذه المرة يكون جحا حكيماً ينقش حكمة

موجزة . . فى جملة قصيرة . . فقد طلب منه صاحبه أن ينقش له كلمة فى مساحة فص الخاتم الذى كان يتحلى به . .

وليس من الصعب نقش عبارة على فص خاتم . . وفى القديم طالما نقشت عبارات . . وأسماء . . وطالما اتخذ الخاتم حلية وزينة وقد يختفى وراء فصه . . ختام الفصل . . فقد أخفيت نثرات من السم ولمعت فوق فصه لمعات الياقوت أو الزبرجد وسأل جحا صاحبه . . وماذا تريد من عبارة تنقش؟ . . أجاب متحدياً يريد أن يختبر جحا وما أكثر ما وقع جحا فى الاختبارات .

انقش عبارة إن قرأتها وأنا طرب جذلان أنسى نشوتى وأقطب وأحزن . .

وإن لمحت العبارة وأنا حزين متألم . . يذهب عنى الكمد والحزن ويمضى الألم . .

وضحك من فى المجلس وهم يصغون إلى هذا الشرط المربك أيستطيع جحا أن ينقش هذه العبارة على فص خاتم؟! . . لا بد أنه يعجز . . . إنه امتحان ولا

الامتحانات الماضية وأين يجد هذه العبارة التى لا تختلف وجهة النظر إليها فقط بل هى بسحرها تنقلك بعكس ما كنت فيه.. بالضد.. من الفرح إلى الحزن.. والعكس بالعكس..

لقد عرف الناس وخاصة فى عصور انحطاط الأدب صنوفاً من التلاعب بالكلمات والألفاظ.. عبارات وجمل تقرأ من الشمال كما تقرأ من اليمين.. وفى فن البديع ما يسمونه الطرد والعكس.. والحريرى بنى إحدى المقامات على هذا النوع من اللعب بالألفاظ.

ولكن ليس التلاعب الحرفى والحلية اللفظية هى المقصودة هنا عندما طلبوا من جحا عبارة للخاتم المنقوش فى ذلك الطلب العجيب الغريب.

عبارة تنقش وعند التأمل فيها يكون لصاحبها العكس فى الحالة فإذا تأملها فى حالة حزن.. انتقل إلى فرح أو اللامبالة وإن تأملها وهو فرحان.. أصابه شىء من الغم والاضطراب... ولم يذهب جحا ليهز جماجم الحكماء... ليستنطقها تلك الكلمة ذات الحدين..

ليجد عندها السر.. أو المفتاح السحرى... بل جحا فيلسوف.. وشعبى.. ومن أفواه العامة يلتقط الحكمة ويجد عندها الضالة المنشودة.. عبارة سارية جارية.. وأخذ جحا الخاتم وطلب من الصائغ أن ينقش عليه عبارة «كله فانى».

وكان صاحب الخاتم كلما سكر وعربد.. وفرح واستهتر وجرفه البطر وكاد أن ينسى الحقيقة.. لمح الخاتم وتراءت أمامه الكلمة المنقوشة.. «كله فانى».

فتكون «كالفرملة» له كابحة.. وفيها إيقاف وحد من غلوائه فيها ما يحزنه ويكدره... ويشده إلى واقعه دون التمادى فى شطحات الأوهام.. ومن تأمله فى العبارة.. يخرج من ساعة العبث واللهو.. إلى التأمل والاعتبار.. وأيضاً.. كان إذا الحزن هده وجرفه الغم وأطرق أسفاً أو غلى الألم فى عروقه.. على فرص فاتت أو آمال أجهضت.. أو أحلام تبددت.. أو أعشاش ذهبت تهدمت.. من أجل خسارة أو كارثة.. ودمع ولمع أو أجهش بالبكاء والحسرة.. وكادت تذهب نفسه حسرات

فيلمح فى ساعة الكدر ذلك السطر المنقوش فى فص خاتمة . . «كله فانى» .

فعلاما إذاً الهم والغم والاضطراب . . فعندما يسند ساعة التأمل خده على كفه ويسرح .

إذ فالعبارة له كالمخرجة والناشلة له مما كان فيه تنقله العبارة من حالة إلى حالة . .

تزيل عنه الأتراح . . أو تخفف من غلواء البطر والأفراح عبارة . . «كله فانى» . . فلسفة جعلت شاعراً كعمر الخيام يتأرجح بين تصوف إلى حد الزهد والإغراق .

ويعربد فى شعره وكأسه إلى حد اللامبالاة . . لأن . . «كله فانى» . . . وجعلت الكلمة قوماً ينتقلون من ضفة إلى ضفة . . ومن نهج إلى نهج على حسب التأويل والفهم . . العميق أو السطحى فلسفة . . ذات بذور وعمق . . يصورها الأدب الشعبى فى فكاهات ونكات . . ويجعل من جحا عارضاً لهذه الفلسفات فى ذلك الثوب .

فهل تستطيع أن تذكر خاتم جحا إن حزنت أو فرحت
ففيه سلوى.. وعزاء.. وفيه تجفيف لمدامع البكاء..
وأيضاً فيه حد من التهور والغلواء..

جحا وبنت السلطان

ومن النوادر التى تضاف لجحا وتصور بعض العقليات وحالات التصور الكاذب وبناء الأوهام . . أن جحا ذهب لصاحبه فرحاً طروباً قائلاً : ـ

ألا تهنئنى . . فقال صاحبه ماذا؟ . .

أجاب . . لقد خطبت بنت السلطان . . وقريباً أكون صهره وأخذ يحجل ويرقص .

فقال صاحبه متسائلاً فى عجب . . كيف ومتى تم ذلك هل وافقت هى على ذلك؟ .

أجاب جحا . . الآن فى منتصف الطريق . . فلقد وافقت أنا على هذه الخطبة وما بقيت إلاَّ موافقتها هى .

وكثير من الناس أحلامه كجحا يبنى لنفسه من الأحلام ما يهدمه الواقع المرير . .

قبر جحا :

وقد صورت الآداب الشعبية جحا فى كل أحواله فى فرحه وحزنه فى آلامه وآماله فى علمه وجهله . . وذكائه وغبائه . . وحتى فى قبره صورته النوادر والأقاصيص ، فقد زعموا أن جحا عندما مات وذهب للمرقد الأبدى أوصى أن يكون قبره فى وضع غير عادى على هيئة مضحكة حتى يبعث الناس على الضحك حتى فى مثواه . . وطلب أن تنقش هذه العبارة أو معناها :

«اللى اخدى امرأة ما رتاح . . واللى ما خداش امرأة ما ارتاح » .

وهذا من نسج الخيال الفنى عند الأدباء المجهولين ولعل هذا مأخوذة فكرته من البيت الذى نظمه أبو العلاء المعرى الفيلسوف الساخر بالحياة والقائل . .

هـذا جـنـاه أبـى عـلى
وما جـنـيت عـلى أحـد

تخلـص :

وهذه نادرة من نوادر المسامرات فى ليبيا . . . تظهر جحا بارعاً فى تسلق النخل برشاقة وخفة . . وتظهره أيضاً بارعاً فى حسن التخلص والتملص . . وسرعة الإجابة واختلاق المعاذير بأقرب طريق .

وما أكثر معاذير جحا وما أكثر صنوفها . . فهو يلجأ إليها عند التورط وفى مضيق المضايقات والمأزق . . فهو يصعد نخلة قد يكون لسرقة العراجين . . أو لتلصلص على بنت الجيران . . قد يكون ذلك شقاوة وعبثاً . . . ولم ينظر أعلى النخلة وعندما مد يده لعرجون البلح . . فوجىء بصاحب النخلة قد فغر فاه واتسعت عيناه أو تقاربت حاجباه مقطباً مستغرباً . . سائلاً . . اهه . . ما هذا؟ . وهنا يظهر من جحا حسن التخلص والتملص وقال جحا فى هدوء وبساطة . .

أرجو أن تبيعنى بهذه الدراهم بلحاً . .

أهكذا طريقة البيع والشراء . . ولكنه مجرد تخلص لإبعاد تهمة السرقة أو التلصص على بنت الجيران .

دفــــاع :

وفى هذه المرة تصور النادرة جحـا من أصحاب الأملاك . . فى حوزته بيت متسع الأرجاء على طراز بديع ولا تسألنى كم طابق كان فيه وكم حجرة . . فلم أشاهد هذا البيت الجحوى إلَّا فى النوادر والأسمار إنه بيت يعتز به جحا ويمد فيه رجليه على طولهما كما يعبر السامرون فى أسلوبهم الرشيق .

وإذا بجاره يستدعيه للحديث . . ثم يطلب منه الجار أن يبيع حجرة ملاصقة ليضيفها الجار إلى منزله .

ورفض جحا أن يبيع حجرته للجار ولو كان غنياً مترفاً إنه حر فى بيته . . يملكه تملكاً شرعياً فكيف يرغمه الجار ويغريه على بيع الحجرة؟ . .

وأخذ الجار المترف الغنى فى المساومة والمزايدة خذ خمسين . . مئة . . مئتين . . إنى محتاج لتوسيع بيتى يا جحا . . بعنى حجرتـك . . ورفض جحا . . ولست

أدرى أشرب قهوة عند جاره أم كان ذلك قبل أن تعرف القهوة والشاى . . المهم ليس هذا إنما ما وراء هذا . . . فقداتهم الجار جحا بأنه سفيه لا يحسن التصرف كيف لا يبيع حجرة تساوى خمسين بمئة . . كيف يرفض ثمناً باهظاً . . ولم تقف النادرة عند هذا الحد إنما ذهب الجار المشاكس المناكف ورفع دعوى على جحا بأنه سفيه لا يحسن التصرف ويجب إقامة قيم عليه . . . وسيق جحا المسكين إلى المحكمة وتلا عليه القاضى صحيفة الادعاء التى تتهمه بالسفه وهنا يظهر حسن الجواب . . من الأجوبة المقنعة المسكتة التى برع فيها جحا وبها اشتهر .

وكفاه هذا الجواب الموجز أو هذا التساؤل المختصرمؤنة محامٍ .

قال جحا على الفور بالعكس سيدى القاضى أينا السفية الذى يشترى الحجرة بأضعاف ثمنها أم المتمسك بحقه .

وبهت القاضى واقتنع وانتصر جحا كعادته فى مثل هذا المأزق .

دفع وقبض :

ولكن فى هذه المرة يكون جحا مغفلاً ونوادر جحا كما سبق أن قلنا فيها ما تضيفه إلى مصاف الأذكياء وفيها ما تزج به فى أودية المغفلين البلهاء . .

فقد زعموا أنه يمتلك نصف منزل بالمشاركة وجاء شريكه طالباً بيع الذى يملكه ليخلص من مشاركة جحا وأظهر جحا التردد وبدأ يفكر كيف يشترى النصف الذى يخص صاحبه . . وطلب منه راجياً إهماله خمسة أيام للتدبر والتفكير .

وذهب جحا المغفل وباع النصف الذى يملكه بخمسين ديناراً واشترى من شريكه النصف بسبعين ديناراً وعندما سمع زملاء جحا بهذه الصفقة الخاسرة لاموه . . وعتبوا عليه . . ما الفائدة من بيع نصف بخمسين وشراء نصف مثله بسبعين؟ . .

وأجاب . . الغرض من هذا الحركة . . دفع . . وقبض . . وكم من حركات عند الناس وتصرفات لا تخرج عن هذا الصنيع ومن هذا المثيل صفقات ليس فيها

إلَّا الدفع والقبض . . ولو عن طريق الخسران . .

وراك . . وراك :

وهذه نادرة تروى عن جحا التركى نصر الدين كما تروى عن أبى الغصن العربى وأيضاً يرويها المتفكهون من رواة النوادر فى مصر . . ويتسامر بها الناس فى مجالس التفكه بليبيا سارت النـادرة على الألسن . . وسطرت فى الأسطر . . وتضاف إلى جحا وقد يكون جحا منها بريئاً . . دخـل لص بيت جحا وشعـر به فتناوم . . . وضم ما فى البيت من لباس ورياش ونحاس ولم يترك فيه شيئاً يحمل وضمه فى كيس ووضعه فوق ظهره وتسلل . . وانـطلق جحـا وراء اللص خـطوة بخطوة . . وشعر اللص بالحركة وراءه . . وهل هناك أرهف من سمع اللصوص . . إن شعورهم بالحركة أسرع وأشد من القطط فقال اللص . . إلى أين يا جحا؟ .

فأجاب . . ذاهب معك لعلك وجدت لى منزلًا خيراً من هذا . . . وما بقائى فى المنزل . . فترك اللص متاع جحا وسلم بجلده . . فكان تهكم جحا خيراً من ألف

شكوى وقضية. . وهكذا تكون الفكاهة أحياناً والسخرية منقذاً.

هدية مزعجة :

قد يهدى إليك أحد الناس هدية . . فلا بأس . . إما أن تكون الهدية من ورائها المتاعب والمصاعب فهذا هو الباس كل البأس . . وكثير من الناس تكون هديته مبعث إقلاق ويقصد من ورائها الاستغلال والمغانم .

فيكون قبول الهدية غرماً . . وأى غرم .

وصور الأدب الشعبى فى ليبيا هذا وجعل من جحا ضحية لهدية قدمها أحد المزعجين . .

أهدى صديق لجحا أرنباً وفرح به شاكراً وذبحه وطبخه وتغدى به مع زوجه . . بارك الله فى هذا الصديق . . وعند المغرب دق الباب. . . من؟.

فأجاب. . أنا الذى أهديتك الأرنب. .

تفضل. . مرحباً . . وطال الجلوس حتى حان موعد العشاء فتعشى صاحب الأرنب . .

وفى اليوم الثانى دق الباب دقات متوالية الطرقات من؟ . . . .

إنه صاحب صاحب الأرنب . . فقد أرسله بديلاً عنه .

وتورط جحا وسلم أمره لله وأحضر له المرق فقط وتغديا سوياً .

وفى اليوم الثالث. . دق الباب .
وخرج جحا وهو يلبس جبيته على عجل. . من؟ . .
فقال أنا صاحب صاحب صاحب الأرنب.

وبهت جحا وقال . . تفضل تكرم . . وجلس ينتظر الطعام وأخرج جحا صحفة مليئة بالماء وقال تفضل . . زود . .على بركة الله فقال الضيف ما هذا؟ فقال جحا هذا ما بقى فى الإناء مرقة مرقة مرقة الأرنب وأنت صاحب صاحب صاحب الأرنب . . هذا ما ينوبك حسب الوضع والترتيب . . ولو لم يصنع جحا هذا لجاءه الخامس والسادس على حساب هدية الأرنب .

غذاء . . . وحذاء :

مكروا بجحا فى كثير من المآدب . . فأراد أن يرد المكر لأصدقائه مهما كلفت هذه المداعبات من إحراج . .

ولكن الفكاهة لا ترحم والمداعبات لا تعرف الرفق إنها صورة مما يصنعه فى عصرنا الحديث أهل الطرائف والفكاهة وما يسمونه بلهجة التندر عند ظرفاء مصر بـ «المقلب» وقد برع فى فن المقالب الشاعر حافظ إبراهيم والأديب الظريف عبد العزيز البشرى والسرى المتبطل حفنى محمود ولكن الأدب الشعبى الليبى صور جحا صاحب فكاهة «ومقلب» يفوق هؤلاء أضعافاً مضاعفة . . وخاصة فى حكاية الغداء والحذاء . . .

دعى جحا لفيفاً من الأصدقاء لتناول الغداء وإن قلت العشاء فلا بأس . . وهيا البساط والصحاف وما تأخر عن الدعوة مدعو . . كلهم هرعوا سراعاً . .

ولم تكن عند جحا سفرة طعام كالعصر الحديث إنما

على الطريقة القديمة لا بد من الجلوس والتربع وخلع الحذاء .

وضم الأحذية وأزاحها عن الطريق ووضعها فى كيس وسلمها للخادم آمراً أن يبيعها فى السوق ويأتى بثمنها لحماً وبهاراً وخبزاً . .

وحضر الطعام وتحلقوا حول القصعة وجحا يطوف عليهم مرحباً . . هاشاً . . باشاً . . وبعد انتهاء الطعام والشكر والسلام وكعادة المدعوين فى سالف العصر والزمان رفعوا أيديهم بالدعاء وجحا يؤمن ويتمتم واستأذنوا فى الخروج . . وكانت مفاجأة . . لم يجدوا الأحذية . . وصاحوا ماذا فعلت أين الأحذية . . فأجاب . . فى بطونكم . . فكان هذا المقلب وقاية له من مقالب أخرى كانوا يدبرونها لجحا .

دقة . . بدقة :

ويروى أصحاب المتندرات فى ليبيا أن جحا دعى إلى وليمة غداء أو عشاء ومد السماط . . وقدم طعام البادية جدى مشوى على طريقة «بورديم» وكان الطعام بعد

مشوار طويل وانتظار أطول. . وشمر جحا عن ساعديه. . وأخذ ينهش الجدى المشوى بكل شره. . بلا رحمة ولا رفق وتغامز من معه. . وأرادوا أن يحركوا لسان جحا ويعاكسوه. . فقال أحدهم. .

ما هذا يا جحا. . تنهش بكل قوة أبينك وبين الجدى ثأر؟. .

هل أمه نطحتك؟. .

وأجاب جحا فى سخرية لاذعة . . وسرعة خاطفة . . وأنت . . ما هذه الشفقة التى اعترتك . . . أبينكما قرابة لعل أمه أرضعتك؟ وهذه النادرة أيضاً تروى فى كتب الأفاكية والطرائف من الأدب العربى القديم . . تداولها الناس حتى غدت من أسمار الأدب الشعبى فى ليبيا .

جحا فى الشعر العربى الليبى

الشارف، قنابة، صدقى، الفقيه، أبو حامد، الجواب :

والآن وبعد أن تجولنا مع جحا. . وكادت أن تطول طوفتنا معه. . ورأينا كيف يأخذ جحا مكانه أو مكانته فى التراث الأدبى القديم وفى الأدب الحديث، وشاهدناه ينبوعاً وملهماً من ينابيع الفن. وقد تحدثنا عن جحا فى الأمثال والنوادر فى ليبيا . . وكما صوره خيال الأديب الشعبى المجهول . . ورأينا جحا فى أصباغ وألوان يحق لنا . . يا سادة . . بعد هذا الجولان والطوفان أن نرى جحا كما صوره الشعراء الليبيون . . المحدثون .

وهؤلاء الشعراء من أدباء عرب ليبيا فيهم شعراء يمثلون المدرسة الشعرية المحافظة التى تهتم بالأوزان ونغمة التفعيلات وتحافظ على عمود الشعر. . . ومنهم شعراء تأثروا بالمدرسة الشعرية المستحدثة ذات الحرية

فى التعبير والتصوير إلى أقصى حدود الحرية والطلاقة أو الانفلات والانطلاق . .

ساهم الشعر العربى الليبى المعاصر فى رسم جحا وتصوير ملامحه وحالاته منهم من أوجز الوصف فى أبيات مقتضبات . . ومنهم من طال نفسه . . . منهم من حاول تحقيق شخصيته . . وإبراز هويته . .

وهنـاك من حاول رسم جحـا عن طريق البحث والفحص فأخذ يسأل ويتساءل معتمداً على المرويات أو المنقولات والمسموعات . . ومن الشعراء من اقتبس لون تصويره من الأدب الشعبى وحديث الناس عن جحا . . **حتى شيخ الشعراء فى ليبيا الشيخ «أحمد الشارف»** مساه الله بالخير رغم اعتزاله وعكوفه فى قعر داره . . رغم التسعين عاماً التى يحملها بصمت ووقار . . ساهم فى رسم جحا بأبيات ذات أصالة وحيوية والشاعر الشارف . . أديب يعتز به الشعر العربى فى ليبيا . . بل هو إنسان يعتز به الأدب العربى . . وله فى الشعر مطولات ومعلقات . . ووطنيات ذات حماسة . . وله غزل رقيق . . وفكاهات ودعابات . . ولا تزال مجالس الأدب فى ليبيا تذكر أسمار

الشارف ومداعباته الشعرية وفكاهته الأدبية. . . .
ومساهمته فى مجالات الأدب الرصين والشعر الرفيع . .
يذكره الأدب والفن. . مع أن أصدقاء الشاعر وزملاء
الشاعر والذين غدو مسؤولين اليوم فى الدولة. . نسوا
الشاعر. . وأهملوا ديوان الشاعر[1]. ولكن تاريخ الأدب
فى ليبيا وتطور الحركة الفكرية لا يمكن أن يهمل الشاعر
وينسى أمره . . أليس هو الهاتف فى أيام حركة الجهاد
المقدس :

رضينا بحتف النفوس رضينا
ولم نرض أن يعرف الضيم فينا

والهاتف أيام لجنة التحقيق الدولية قبل إعلان استقلال
بلاده :

وهذه ليبيا لن نرضها وطناً
ما لم يكن حكمها يجرى بأيدينا

والشارف فى نظمه دائماً . . يحافظ على البناء

---

(1) الشاعر أحمد الشارف. ونشر على مصطفى المصراتى دراسة عنه بعنوان (أحمد الشارف ديوان، ودراسة) .

الشعرى القديم والتفعيلات المتعارف عليها مع فخامة اللفظ وجزالته وفصاحة التعبير وأصالته فهو من طراز الكاظمى وعبد المطلب وشعراء البادية المحافظين مع رقة وانسياب . . وقصيدته عن «جحا» رائية تبلغ إحدى عشر بيتاً أخذ فى مطلعها يعجب من حياة جحا المليئة بالنوادر والفكاهات وهو يحاول أن يبحث عن ترجمته فيتحير أمام الاضطراب فى الآراء. . والتناقض فى الروايات . . والوجوه العديدة التى طلع بها جحا فى ثنايا التاريخ و«السير» فحياة جحا فيها كثير من طريق النقل والسماع ورغم هذا فهى فى مجموعها ذات إطار فنى وذات عبرة وهدف ومن وراءها مغزى وعبرة . .

وحياة جحا من صنع الأدباء ونسج أهل الفن وهذا الأدب لأهل البصائر والأفكار يزهو . . كأى شىء؟ . . كالجمال لذى البصر. . . ولعل هذا التشبيه الذى ساقه الشاعر هنا له دوافع نفسية تعتمل فى نفس الشاعر المعتكف[1] الآن فى ركنه الهادى الصامت. . وجحا . . كأثر أدبى . . وجحا شخصية فنية . . بتراثه ونكاته وشوارده

(1) أى عام 1957 م .

وأوابده. . يراه الشاعر الليبى الكبير. . حياً . . لم يمت بعد. . لماذا لأن التراث الفنى له الخلود والامتداد. . ولو لم يكن ذلك التراث الفنى له الخلود والامتداد. . لما أخذ الباحثون ينقبون عن شخصية جحا الفنية. . . بعد أجيال وآماد. . ولما أخذ الشاعر رغم التسعين عاماً . . ينظم فى جحا هذه القطعة . .

ويدعم الشاعر هذا الخلود والامتداد لحياة الشخصيات الفنية . . بأن المرء يعرف قدره وتظهر منزلته . . بحديثه . . سواء كان هذا الحديث. . أو الأثر الفنى. . من قبيل الجد الصارم. . أم المزح الساخر وجحا عند الشاعر فى إيجاز. . حى بآثاره الفكاهية رغم اضطراب الأرقام فى حياته الترجمية .

وفى نوادره هدف ورمز . . هذا قصارى الوصف . . ويظهر التواضع من أحمد الشارف الذى عاش طوال حياته . . إنساناً متواضعاً . . فيرى أن وصفه لجحا قد يكون غير كاف ولا واف. . ولعل هناك من الأدباء والشعراء من يستطيع أن يصف حياة جحا أكثر ولعل هناك

من هو أوسع نظراً وأفقاً . . وهذا تواضع محبوب . . وما أروع التواضع من أهل الفكر . .

ثم يعود الشارف بعد أن ظنناه فـرغ من حديث جحا . . يعود ليؤكد أن ما قيل عن جحا قد يكون من تعابير الخيال . . ودنيا التصور لا دنيا الحقيقة والواقع . . وهل أحاديث أبى نواس ونوادره مثل تراث جحا يا ترى؟ أم أقل منها خلطاً . . وفى كلا المرويـات عن هذا وذاك . . سار وضار . . وجد وهزل . . مهما يكن من أمر إنه تساؤل والشعر قد يتسع فيه التساؤل ولكن الشعر لا يتسع للتحقيق فذلك مجال الدراسة والبحوث . . وصدر النثر أفسح من الشعر فى هذا المجال . . وسواء كان جحا حقيقة أم خيالاً . . وسواء كان أقل أو أكثر فى النوادر من أبى نواس . فالشارف الشاعر يرى أن كل ذلك من ضروب الأدب والتلوين الفنى .

وكل ذلك من آفاق المعرفة . . والأثر الفنى نشاهده كالشمس والقمر تضىء . . وتضىء بأشعتها وما لنا ومال الأجرام وكيفيتها وحقيقتها . . والشارف . . من طراز

الشعراء الذين يطرزون قصائدهم «بالحكمة » ويزوقونها بمأثورات الأقوال . . فهو يختتم قطعته الفنية ببيت فيه فواح من «الحكمة» والمأثور . .

إن كان جحا لا يرى عند الأغبياء . . ولا تدرك أهدافه ورموزه التى صاغها الأدب الشعبى . . فإن السهى ـ وهو نجم ـ قد لا يظهر لخفائه . . . ولكنه . نجم وهذا البيت تأثر فيه الشاعر بيت أبى العلاء المعرى فى سقط الزند يقول الشارف فى قطعته :

إن كان فى وطن الغباوة لا يرى

مثل السهى لخفائه لا يعتبر

وأبو العلاء المعرى يقول :

والنجم تستصغر الأبصار رؤيته

والذنب للطرف . . لا للنجم فى الصغر

والشاعر **أحمد قنابة**[1] . . هجر الشعر وطال خصامه . . ولصمت أحمد قنابه أسباب وعوامل . . ليس مجالها هنا . . ولنا عتاب نوجهه للشاعر فى مجال آخر . . أما

(1) توفى أحمد قنابة عام 1968 م .

الآن فها هو يتحفنا بقطعة أدبية عن جحا فى تساؤل . . وفيها تصوير وحسن تعبير. . فهو قد سمع عن جحا ما يفرح. . وسمع عن جحا ما يترح. . هل يا ترى كان جميلاً فيه مرح الشباب أم دميماً مقطباً فيه كآبة؟. .

إن الشاعر يتساءل ويريد أن يسعفه صاحبه بالجواب وهو لا يدرى كيف يبت فى قضية جحا . . إزاء الروايات المتضاربة وتناقض المواقف والأحداث . . أهو ذكى المعى . . أم أبله غبى . . ولكن رغم ذلك التضارب فى المرويات . . ورغم الشك من الشاعر فإنه يرى جحا شخصية فنية جعلت الناس يصغون لنكته ونوادره المبعثرة فى كل مجلس ومنتدى . . والتى يطالعنا بها الناس فى الصباح والمساء . . وبعد أن يشك قنابه فى حقيقة جحا إذ به يؤكد لنا أن جحا شخصية حقيقية وأنه أيضاً ناصح مرشد حكيم أريب وكان نصح الناس من ديدنه .

هل هناك أدق من مسمار جحا فى النصح والتحذير. . إن قصة مسمار جحا شغلت الشاعر المصرى فريد عين شوكت. . وألهمت الشاعر الكاتب على أحمد باكثير. .

وها هى القصة أيضاً تلهم الشاعر الليبى أحمد قنابه فسجلها فى شعره . .

ولكن بعد هذا التأكيد والتحقيق من شخصية جحا ونصحه يرجع الشاعر قنابه بنا إلى الشك والحيرة فى شخصية جحا وهل ينسى أن الشاعر الفنان يستلهم من الخيال والأوهام وأراد أن يحقق ويدقق هل جحا جاء إلى الدنيا فى جملة الوافدين أم تراه مجرد وهم؟ . .

والوهم والخيال ثروة للفن . . ولو جردنا الدنيا من الوهم والخيال لجف نبع الأدب والفن والشعر . .

ويرى الشاعر أن كلام الناس عن جحا فيه إسراف ومبالغة عندما شادوا له قبة . . ومسرحاً . . وأضافوا إليه آلاف النوادر . . ولكن . . مع هذا الإسراف وتلك المبالغة . . هناك طرافة . . وأخيراً يرى الشاعر أن هذه الأوهام والمبالغات والتراث الشعبى قد جعلت من هذه الشخصية الفنية . . الرمزية . . ثروة . . ومادة . . . وأصبغت على جحا لوناً زاهياً .

والشاعر **أحمد الفقيه حسن** من شعراء المدرسة

المحافظة . . وكان ينشر منذ سنوات . . أو فى الجيل الماضى . . بإمضاء «السمير الصغير» . . ولكنه اليوم غدا سميراً كبيراً . . وله شعر ونظم فى مختلف الأنحاء منه مطولات . . . وأبيات موجزات . . وله دعابات وفكاهات شعرية . . بجانب قصائد ذات رنين يختزنها فى ديوانه الذى نرجو أن نراه[1] مطبوعاً عند القراء . .

ويهمنا هنا قصيدته فى وصف «جحا» فهو لم يسأل كالشارف وقنابه بل من أول الحديث أكد حقيقة «جحا» وترك عناء البحث عنه وعن مفصله وأصله . .

وجحا عند الشاعر رجل برىء صدرت منه البدائع والطرائف وجاءت على «مهل» وما المانع أن تكون «مسرعة» لعل قافية اللام لم تمهل الشاعر . . وكثير من قصائد الشاعر أحمد الفقيه حسن لامية المقطع . . حتى إنه ضارع مرة لامية «الطغرائى» وصديقنا الشاعر متأثر بالثقافة والأدب القديم ذى الأصالة والبحث اللغوى فهو يذكر مثل ـ الركبان ـ سارت بذكره الركبان من قدم . . ويذكر السهل والجبل، والخطل، وأيضاً هو كزملائه

(1) طبع الديوان فيما بعد سنة 1966 م .

الشعراء يرى أن قصص جحا ونوادره ذات هدف ومغزى ورمز . . صاغها الأدب الشعبى على مر الأجيال والحقب .

ودافع الشاعر عن جحا وإبان رجحان عقله وما نسبوه من خبل وعته إلى جحا . . كان شيئاً باطلاً وتحاملاً غير صائب . . ولكن هذا التحامل والاتهام كان من ناحية أخرى مناط فكاهات ووسيلة للدعابة وجحا فى نظر الشاعر مظلوم . . مهضوم . . . مسكين .

ويتمنى الشاعر أن يعدل الناس فى الحكم على جحا وأن يرفقوا به . . والقطعة جاءت فى ثمانية أبيات فيها صدق الدفاع . . وحرارة الأديب المشفق على جحا المظلوم .

على صدقى من شعراء المدرسة الحديثة يفضل النظم الحر على النظم المقيد . . وهو يصور لنا جحا فى صورة شعرية طريفة . . . ويتحدث عن أساطير جحا . . بأسطورة فنية . . ويجد الشاعر كعادته مسرباً من الحديث عن القصة الأسطورية إلى الحديث عن الوطن

والـوطنيـة . . وهــذا هـروب محبــوب . . وتسـرب مرغوب . . ليلة ممطرة . زمهرير . . برد . . رعد . . برق . . جلس الشاعر حول نار المدفأة يقرأ فى ديوان شاعر . . وبين جمرات المدفاة تصاعدت أبخرة وفاحت أعواد الطيب . .

صورة شعرية سحرية . . من خيال شاعر . . وفجأة . . من قمقم . . غيـر قمقم سليمـان . . خـرج مـارد . . عفريت . . لا . . . بل عمنا جحا . . وكيف؟ . . كما صوره الشاعر يمتطى مهراً مجنحاً . . أسطورة ويرتدى جبة . . وفى يده قوس . . وأخذ الشاعر يتحدث عن جحا . . أو أخذ جحا يتحدث للشاعر . . حديث شعر . . لا حديث صحفى . . . عودة بعد أجيال وقرون . .

ويصف جحا الدنيا . . ويقارن بين جمال الماضى والحاضر ويشن جحا غضبة قوية على دعاة الحروب والاستعمار . . وعلى الخفافيش ويصور جحا الحرب والدمار بأبشع الصور وما أن يتلقف الشاعر حـديث جحا . . حتى يراه فى صورة أخرى . . بـدل المهر

المجنح «صاروخ» . . ما أقوى أعصاب جحا . . ومرة أخرى يراه الشاعر فى منظر آخر وبعد ضحكة مجلجلة مدوية ساخرة . . وحول دخان المدفأة العجيبة الساحرة . . اجتمع حول جحا الساسة الكبار فى الكرة الأرضية فى منظر يصوره الشاعر يغضب فى سخرية وهدف . . ساخطاً على الحرب ودعاة الدمار . .

وتنتهى المسرحية الصغيرة . . أو الأسطورة الفنية بأن يرمى جحا دعاة الحرب والاستعمار فى المدفأة . . كأنهم أعواد مكانس . . وقش . . وفى غمضة عين . . ترتفع أبخرة المجمرة وكفى الله الناس شر الحروب والدمار . .

ومن هنا يظهر حب الشاعر للسلام والأمن ودفاعه عن الإنسان وحرية الإنسان ونفتش عن جحا وعن الشاعر فلا نجد إلَّا طيباً وبخاراً هادئاً . . وقطعة شعرية جميلة . . وإن كانت لا تطرب أصحاب الأوزان الشعرية . . إلَّا أنها صورة فنية معبرة .

والشاعر محمد الأمين أبو حامد . . ينظم فى وصف جحا وتحقيق حاله قصيدة فى زهاء أربعة عشر بيتاً . .

وهو كالشارف وقنابه يتساءل ويتعرض لما قيل عن جحا ترى. . أهو قاض. . . أم سرى من المترفين؟ . .

أهـو صاحب ظـرف ودعابـة مستملحة . . سـريع النكتة . . حاضر البديهة . . على ذلك هو شخصية عاشت ودبت على الأرض. . . عاشت فى الأذهان . . وعاشت مع الناس. . أم هو تصوير خيال. . وتقمصت فيـه الحياة عن طـريق الاختلاق الفنى. . والتصـوير الأدبى؟ .

وكم اختلق الفن من شخصيات ورموز . . ولكن جحا صار على مرّ الزمن حقيقة. . على الأقل فى الأذهان والعقول والطروس وتـطورت شخصية جحـا وغلفت بالرتوش والمغريات وكان مسلاة وملهاة . . وما الفرق بين المسلاة والملهاة . . لعل القافية تعذر . . ويفصل الشاعر شخصية جحا بعد تطورها وتبلورها الفنى . . . فيها الطريف وفيها الصائب الحكيم ولكن ـ حسب اعتقادى ـ أى اعتقاد الشاعر. ونص العبارة منه . جحا محـور للشبهات . . ويكاد أن ينوء من اختلاق الشائعات وخيال

السنين الغابرات أى . . هو أسطورة . . ذات أنحاء . . وألوان . .

وأبو حامد . . يرى مثل زملائه الشعراء . إن المهم ما وراء ذلك من نوادر وأقاصيص . . . ما لنا وللتعب الذهنى فى التحقيق العلمى لسنا فى باب البحث والترجمة . . بل فى رحاب الشعر والتصوير ومن هذا الباب . . أو من هذه النافذة . . نقبل كل شىء من جحا . . وعن جحا . . يقبل كل هذا وخاصة فى الأدب الرمزى الهادف . . وفى باب القصة والحكاية . . والشاعر يلخص قصيدته فى بيت الختام مهما اختلفت الروايات :

سيان كان حقيقة أو من قبيل الترهات

فهو معجب بتراته . . وطول أنفاسه . . وتعدد صوره .

والشاعر بشير الجواب : صاحب روح فكه . . سرعان ما اقتحم ميدان جحا ومحرابه . . وأخذ يصف جحا بدون أن يسأل مثل الشارف وقنابه . . ولم يتردد بل هو يراه شخصية حقيقية . . ظريفة . . محببة . . وأعجوبة الدهر . . وسبب هذا كله نكته ونوادره المليحة

المستطرفة . . وإن كان وراء هذا كله أهداف ورموز حتى فى الألغاز والأحاجى . . وفيها غرابة ولطافة وبها شيق التعابير . . ونوادر جحا بها حكمة . . رغم اضطراب موردها . .

ويكثر الشاعر الجواب مثل هذه التعابير . . . رائعة . . مدهشة مستعجبة . . ظريفة . . الخ . . وحتى فى أحاديثه العادية تتناثر مثل هذه التعابير عنده . .

ولكن الجواب «خبطة» واحدة . . يرى جحا «عبقرياً» وذكاءه شعلة ملتهبة . . إنها مبالغات . . وما أكثر مبالغات الشعراء وخاصة عندما يمتدحون . . بل الجـواب لا يكتفى بهذا . . فيرى جحا . . «علامة» نادرة . . وأين ملامح جحا؟ . . فهذه صفات عامة تطبقها على من تعجب به . . وثوب ينسجه الشاعر . . ويستطيع أن يهدى الثوب لمن يريد . . فهو «كرم» من الشاعر . . عندما يعطى ثوباً لإنسان لا يكون على قده .

وجحا يحىَ فى بطون الكتب . . وذكرياته طرب . . وخلاصة قصيدة صديقنا بشير الجواب تظهر فى البيت

الذى صور جحا :

من ظنــه سخـريـــة فى ظنه مـا أكذبـه

قصيدة الجواب . . خفيفة رشيقة . . شيقة . . كأنها رقصة طروب .

وصف جحا

للشاعر: أحمد الشارف

إنى لأعجب من جحا وحياته

فيما لديه من النوادر والسير

فعلى ترجمة الحياة تعذرت

لم أدر كيف أقول من خير وشر

بالنقل والتقليد إن خلاله

لذوى البصيرة عبرة لمن اعتبر

أدب الأديب لذى البصيرة لم يزل

يزهو كما يزهو الجمال لذى البصر

فكأنه إن مات حى لم يمت

من كان بعد الموت محمود الأثر

والمرء يعرف قدره بكلامه

وحديثه الجدى ينفع أم يضر

هـذا قصارى القـول منى فى جحا

ولعـل منى الغير أوسـع فى النـظر

فلعـل مـا قــد قيـل تعبــير خيـا

لى تـصــور لا حـقـيـقـى ظـهــر

لم أدر أن أبــا نــواس مــثــله

أو فــوقـه فيــها يسـوء ومــا يسـر

وشمـوس معـرفــة الأديب مضيئـة

كــإضـاءة الشمس المنيــرة والقمـر

إن كــان فى وطن الغباوة لا يـرى

مثــل السهى لخفــائــه لا يعتبــر

أين جحا ؟

للشاعر أحمد قنابة

قد سمعنا عن جحا ما أترحا
وسمعنا عن جحا ما أفرحا
هل جحا كان جميلاً مرحاً
أم جحا كان دميماً وقحا ؟
صاح قل لى عنه ما تعرفه
لست أدرى أى شىء عن جحا
كلنا سمع إلى نكتته
أينما أمسى وأنى أصبحا
كان نصح الناس من ديدنه
أى إنسان به ما انتصحا
إنما مسماره إن دقه
فى دهاء كان هما مترحا

إننى فى حيـرة من أمـره
لم أجد ما قيل عنه وضحا
هل أتى الدنيا جحا فيمن أتى
أم جحا من وهمنا ما برحا؟
فحديث الناس عنه مسرف
حين شادوا لجحاهم مسرحا
وحديث الناس عند مطرف
حين قالوا عنه كان الجيجحا
حسبنا أن أفانين جحا
جعلته الدهر أن يمتدحا

جحا

للشاعر أحمد الفقيه حسن

جحـا وليس جحا إلَّا امـرأ برزت

منـه البدائـع إذ جاءت عـلى مهل

سـارت بنكتـة الـركبـان وانتشـرت

بين الشعوب فأضحت مضرب المثل

تنـاقلت ذكـره الأيـام من قـدم

بـين البـريـة فى سهـل وفى جبـل

وإن ما سجل التاريخ من قصص

عنه ليحمل مغـزى واضح السبـل

أسـاء فهم جحـا قـوم بمـا نسبـوا

لعقله كـل خبـل كـان أو دخـل

تفكهـوا بـاسمـه فى كـل مجتمـع

حمـلاً عـلى أنـه من معشـر الهمـل

مـا أنصفوا حيث ظنـوا أنه رجـل

إلى البـــلاهـة منســـوب وللخــطل

يا ليتهم عدلوا فى الحكم واجتنبوا

ما سجلوا فيه من طعن ومن ذلل

مع جحا

للشاعر على صدقى عبد القادر

فى ليالى الزمهرير الممطرة
التى خططها البرق دروباً وقصوراً عائمة
ضحك الرعد على أبراجها المرتعشة
ضحكة مجروحة اللحن عريضة
حول نار المدفأة
أعصر الليل بعينى المتعبة
جاعلاً ظلمته حبر يراعى
جامعاً أطراف هذا الكون والدنيا الكبيرة
فى يدى هذى الصغيرة
ضمن ديوان لشاعر
تتملى مقلتى أحرف شعر فى قصيدة
وجهها يعكس أعماقى البعيدة

بين جمر المبخرة
تصعد الأبخرة الفيحاء من أعواد طيب
تتلوى بالفضاء
فى ثناياها (جحا)
يمتطى المهر المجنح
عبر أودية الفضاء
من دخان المبخرة
عمم الرأس بطيب أخضر
يرتدى جبته الحمراء تلقى بالشرر
حاملاً فى يده قوس قزح
وهو لا يفتأ فى جهر يقول
جئت للدنيا التى خلفتها منذ قرون
غادة تسكب فى طاسى الفتون
ها هى الآن عجوز حيزبون
شعرها غابة أشواك ، وأنهار صديد
فوقها يسبح جلادو السلام
ودعاة الحرب أعداء الحياة
حسبوا أن بأيديهم مصير الآدمية

باحتلال الأرض باستعمار أبناء البشر
وبآلات الدمار النووية
يا لهم من تعساء
كالخفافيش التى تعمى عن النار، فتقضى فى اللهب
سلخ الشيطان من أوجهم نطع الدماء
ونعالاً للشقاء
وحبال المشنقة
وبأعينهم المقلوبة الشر استطار
فوق أهداف تغطيها دماء وصديد
نفخت فيها أعاصير الفناء
وبها يحفر إبليس قبور الأبرياء
بالأظـــافــــر
وهنا تفتقد العين (جحا)
ثم ألقاه على صاروخه يطوى الفضاء
فى دخان المبخرة
وعلى هامته قبعة تغتسل الانجم فيها كالحمام
وعلى أزراره أقماره الزرق تدور
وعلى معـطفه بـالعروة، الشمس تمـطت فى كسـل

تغزل الضوء على نول الطفل
ثم يبدو لى (جحا) ينفخ فى الصور الكبير
يؤذن الدنيا بميعاد النشور
ضاحكاً من ذلك القزم الذى بالسلم قامر
قائلاً ملكى مغاليق المصائر
وتدوى ضحكة ساخرة صفراء من ثغر (جحا)
ثم لا تلبث أن تغدو سحاباً ممطرا
ناسجاً أسلاك غيث منهمر
وأرى عبر دخان المدفأة
ساسة الدنيا الكبار
وقفوا حول (جحا)
بعضهم يلبس من جمجمة القتلى قلاده
بعضهم متخذ من شلو قتلاه وساده
بعضهم يشرب من دمع اليتامى
بعضهم تشتعل النار بفيه ، والعيون
بعضهم فى شعره تبدو الأفاعى دائرة
بعضهم من وجهه الممسوخ يبدو فى قفاه
وأرى عمى (جحا) يقذفهم فى المدفأة

مثل أعواد المكانس
قـــــذرة
فى لهيب المدفأة
فى الجحيم



جحا بين الحقيقة والخيال

للشاعر : محمد الأمين أبو حامد

أعلى هــــاك الســانحــات[1]

بمبتغـــــاك الــمعــربـــات

عن رأى نـظمـاً فى جحـا

ك مــا روى عـنــه الــرواة

تـلقــاء رغـبـتـــك الـتـــى

مــا من إجـابتهــا انفــلات

قــالــوا جحـا أحـد القضـاة

وقـيــل مـن بـيـن الســراة

أو أنــــه مـــســتــظــرف

ومهـــرج حـــلو الـنـكــات

---

(1) الخطاب موجه من الشاعر إلى الأستاذ على مصطفى المؤلف لأنه طلب منه رأيه وتصوره عن أسطورة جحا.

أو كـــان من نســـج الخيـــا
ل تقمصت فيـــه الحيـــاة

أضـفـى عـلـيـه تـعـاقـب الأ
يـام شـتـى الـمـضـحـكـات

فـتـطـورت وتـشـعـبـت
وتـبـلـورت بـالـمـغـريـات

حتى غـدت مـسـلاة سما
ر ومـلـهـى لـلـهـواة

فيهـا الـطريف ومنهـا مـا
تـأبـاه أذواق الـنـهـاة
لكنـه حسـب اعتقـادى
مـحـور للشـبـهـات
فـكـأنـه شخصيـة
قـد أوجـدتهـا الشـائعـات
وخيـال عشـاق الفـكـا
هـة فى السنين الغابـرات

مـع أن قـصـتـه عـلى
عـلاتهـا فيهـا عـظـات

ونـوادر ونـصـائـح
رمـزيـة تـرضـى التقـاة
سـيـان كـان حقيقـة
أو مـن قبيـل التـرهـات
هـذا وإنـى مـعـجـب
بتـراثـه رغـم الهنـات

شخصية جحا

قصيدة الشاعر الجواب

إن جحا شخصية
ظريفة محبّبه
أعجوبة الدهر التى
ظلت لنا مستعذبة
فى نكت خلدها
مليحة مستصوبه
نوادر فى طيها
بدائع منتصبة
وفى أحاجى لغزت
ظاهرة محتجبة
غريبة لطيفة
شيقة مستصعبة

فى حكمة ومنطق
معجزة مستغربة
شعارها الصدق وإن
بدت لنا مضطربة
مضحكة رائعة
مدهشة مستعجبة
فذا جحا العبقرى
فذ الحجى والمرتبة

ذكاؤه بين الورى
كشعلة ملتهبة

آثاره خالدة
لفضله منتسبة

علامة نادرة
كياسة وموهبة

منذ عصور وجحا
الناس فيه معجبة

يــحيــا بــطى نــكت

وذكـــره مـا أطـربه !

مــن ظنـــه ســخــريــة

فى ظنــه مــا أكــذبــه

جحا فى الزجل

للزجال الليبى : موسى الجيلانى

وها هو الزجل الليبى يصور لنا جحا فى فلسفته ونوادره . . والزجل فى ليبيا فيه مجالات خصبة وأنحاء متعدد . فتراه يرسم بطولات وأقاصيص . . وقد اعتمد الزجال «موسى الجيلانى» فى قصيدته الزجلية على أحاديث جحا المروية فى المجالس والأسمار وأشار لحكايات مشهورة عن جحا . . وإليك هذه القصيدة الزجلية :

جحـا عنده تخميم كبيـر
عمره فى الدنيا ما يحير
راجـــل مـعـــــروف
محســـوب أول فيلسـوف

دارس يقرأ كل حروف

عالم ما ايكيده تفسير

ساح فى الدنيا وطوف

من المشرق للغرب أسير

لكن سره مكشوف

عقله عقل وليد صغير

قارى القرآن

يعرف ما قال الرحمن

دماغه بالفكرة مليان

ميصعب عنه تدبير

أسمعت عليه حكاية أزمان

أضحك من غارق فى بير

باع افريسه للذبان

وحصل فيها مال كثير

شوف حكياته

مرّ منين سرقوا سباطه

قال ارنى انديرشماته

اليوم اصير فيها ما ايصير

اللى سرقه اخاف على حياته

متأثر حاله خطير

قالوا الرجعولة سباطه

نفتكو من سوه خير

ولما رجعو له سباطه

قاله اش ناوى بالدير

أروح حرجان

من المسجد قلبى مليان

نرجع لبيتى حفيان

هذا الأول والأخير

جاه بنواس

لقى جحا متكى على الساس

يحسابه من أيها الناس

قاله مسيكم بالخير

دور لى جحا يا تراس

تعمل فيا جميل كبير

قاله حاضر شد الساس
لعلى اطيح على الناس

أقعد فى مكانى عساس
وانا عليا بالتدوير

نجيبه حتى من مكناس
واصبر لين تنال الخير

عمله عملا لا تقاس
وجحا ما ايكيده تدبير

خطب على جماعه
قاللهم يا ناس شفاعه
لا فيكم صبر ولا قناعه
سب المغنى والفقير
الناس اقولوا فتك جحا
من النشفى وقولت حي
قالق من ها الحيا
اللى طراله ما طرأ للغير

أقــولـــوا قـثـــال

جحا هو منبع لمثال

يحكو به نساء ورجال

تاريخه فى الدنيا شهير

فنانون ليبيون
يرسمون جحا

اشتركت ريشة الفنانين الليبيين فى رسم شخصية جحا. . وقد صوره كل فنان على حسب ما تخيله وتراءى له. . وقد كان ينبوع هؤلاء ومادة فنهم. . تلك المسموعات أو المرويات عن جحا الفيلسوف. جحا الضاحك المرح. . . وقد غذى الأدب الشعبى فى ليبيا قرائح الشعراء وألهم ريشة الرسامين والنحاتين. .

وصور جحا بريشة كل من الأساتذة الفنانين. . فؤاد الكعبازى. مصطفى الحراتى. . بشير فهمى. . على مصطفى رمضان. . أحمد الفساطوى. ساهمت ريشة هؤلاء فى معرض جحا. . وكما رأينا من رسوم هؤلاء. . تجلى فيها ـ بصفة عامة ـ الفن المعبر. . وأظهرت الريشة

الليبية ملامح ناطقة وأصبغت تلك الأحاسيس على وجه جحا. . في حالات وانفعالات. .

فالأستاذ الفنان فؤاد الكعبازى. . تخيل جحا شخصية ساخرة في هدوء هامسة بالكلمة. . غامزة. . فجحا عند الكعبازى فيلسوف يهمس بالحكمة في أذن الحمار. . هذا الحمار الذى صاحب جحا في طوافه وشاركه آلامه وأفراحه. . كما صورت ذلك الأقاصيص الشعبيـة. . وجحا في رسم الكعبازى وجه طبعت عليه السنون مع التجاعيد والشيب صمتاً وهمساً وحكمة ونظرة فاحصة ورفع يده عند فمه مخافة أن يسمع الناس صوته. . أو ضنا بالحكمة على الناس. . «رسم الفنان فؤاد الكعبازى في غلاف الكتاب».

والفنان على مصطفى رمضان شاب له موهبة فنية، وذخيرة من الإحساس المعبر يظهر هذا في رسومه وصوره ونقوشه وزخارفه التى يقدمها على أطباق جميلة وفى إطارات مزخرفة أو لوحات ملونة يعرضها في المعارض في ليبيا وخارج ليبيا وهو فنان له مستقبل وحازت لوحاته

وصوره إقبالاً وإعجاباً ورسم كثيراً من مظاهر الحياة فى ليبيا . وعلى مصطى رمضان يرسم جحا هنا شيخاً وقوراً جلله الشيب ولاث عمامة كبيرة فوق رأسه . . وظهرت لمعات الذكاء فى نظرته الفاحصة ذات التجربة والخبرة . . ويبدو جحا فى هذا الرسم وكأنه من شيوخ التاريخ وملابس جحا هنا لا تدل على بيئة خاصة بل يصلح أن يكون فى كل موطن من العالم العربى والإسلامى . إنه صورة تاريخية . . والفنان بشير فهمى فحيمة زجال . . وموسيقى . . وأيضاً رسام . . وإن كان الكثير لا يعلم عن نشاطه فى الرسم والتلوين . . وهو هنا يرسم جحا ضاحكاً مرحاً . . باسماً بسمة السخرية . . أو بسمة الإيمان والثقة بالنفس . . . ورسمه نشيطاً بلحيته التى يبدو منها متوسط العمر . . وعلى رأسه عمامة أشبه ما تكون بعمامة «أولاد البلد» فى مصر بالأحياء الشعبية .

والفنان أحمد الحراتى . . من الشباب الذى ساهم فى تنمية الفن وله لوحات ورسوم نابضة بالحياة وقد

ظهرت موهبته فى سن مبكرة ويساهم معه فى النشاط الفنى أخوه مصطفى الحراتى. وإخوة الحراتى فى ليبيا مثل إخوة «الرحبانى» فى لبنان هذان ثنائيان فى التلحين والغناء وهذان ثنائيان فى الرسم والتصوير والتلوين. وأحمد الحراتى يرسم جحا شيخاً مسناً وأبرز فيه تلك الغضون والتجعيدات التى خطها الزمن على وجه جحا المفكر وجحا المتأمل.. وجحا الصابر.. شعره مسدل مهدل كأنه فيلسوف تائه.. أو رحالة متجول.. يرتدى «برونساً» أشبه ما يكون بالشخصيات التاريخية أو برحالة مغربى..

والفنان أحمد الفساطوى من نوع هذه المدرسة الفنية التى أبدعت فى كثير من صورها ورسومها.. والفن عندها موهبة وهواية..

وهو يصور جحا فى نكاته وفكاهته.. وهو أقرب هؤلاء الفنانين إلى جحا الليبى.. وصور الفساطوى فى ثياب ليبية.. ورسم بعض النوادر التى تضاف لجحا فى صور ناطقة معبرة.. جحا وهو يزن القط.

جحا وهو يشير بإصبعه قائلاً المثل . . صبعين والحق الطين .

وجحا متربع على الأرض أمام «النول» قائلاً المثل «البكى نهار السدوة» .

وجحا فى الثلاثة رسوم ليبى المظهر والثياب لولا العمامة الطويلة التى أشبه ما تكون بعمائم قصص ألف ليلة وليلة أو خيال الفنانين الأوروبيين عن الشرق أو عمائم وطراطير المماليك فى العصور القديمة . .

وملاحظة عابرة عن رسم الفساطوى عند وزن جحا للقط فقد أظهر زوجة جحا واقفة ذاهلة فى موقف حرج ولكنه جعلها محجبة تلتف بردائها وتغطى أكتر وجهها . . هل تصنع الزوجة أمام زوجها هذا كأنه رجل غريب عنها . . وخاصة إن النادرة الجحوية التى تتصل بالرسم تشير إلى عكس هذا على طول الخط وبعد . . إن الفن . . فن الألوان والأصباغ والتعبير بالريشة له مجالات ومدارس فى ليبيا ونرجو أن يجد هذا عناية من المسؤولين فى ليبيا فيشجعوا هذا الشباب صاحب المواهب المتفتحة والهوايات النافعة .



فهرس

صدر من سلسلة
«كتاب الشعب»

ر/م	عنوان الكتاب	المؤلف/ المترجم
1	أغانى العَلَم	عياد موسى العوامى
2	يقظة الضمير	عبد الحميد المجراب
3	عرس الثورة	جمعه المهدى الفزانى
4	فلسطين والكتاب المقدس	ترجمة د. عمر التومى الشيبانى
5	الأمثال الشعبية فى ليبيا	محمد حقيق
6	(14) قصة من مدينتى	كامل حسن المقهور
7	هوامش على تذكرة سفر	محمد أحمد الزوّى
8	معارك الغد	أحمد إبراهيم الفقيه
9	تاريخ المسرح فى الجماهيرية	المهدى أبو قرين
10	أحزان اليوم الواحد	محمد على الشويهدى
11	قراءات فى الأدب	د. صالح أبو اصبع
12	كليلة ودمنة ومقتل عبد الله بن المقفع	محمد أحمد وريّث

13	تساؤلات على خارطة لا تسقط عليها الأمطار	عذاب الركابى
14	قراءة فى هذه التحوّلات	عبد الله بلال
15	قصة الرحالة واكتشاف ليبيا	نجم الدين الكيب
16	الأزاهير	ترجمة د. علي فهمى خشيم
17	الديمقراطية الشعبية	مجموعة من المؤلفين
18	دراسات فى القصة الليبية القصيره	سليمان سالم كشلاف
19	السلطة والثورة	تحسين عبد الحىّ
20	رسائل إلى أبناء الثورة	محمد بشير السوكنى
21	فى غمار الفاتح العظيم	عمر الحامدى
22	ثورة الزنج	د. محمد عمارة
23	نحن الشعب	د. ميكى نزيوى ترجمة: شاكر إبراهيم
24	حكايات شارع الغربى	خليفه حسين مصطفى
25	الحق والبندقية	د. صالح أبو أصبع
26	قصة اكتشاف ليبيا فى العصر الحديث	نجم الدين غالب الكيب
27	سلطة الشعب	محمد الفيثورى
28	حتى لا يظهر سادات جديد	سالم والى
29	حلم الثورة فى الشعر الليبى الحديث	فوزى الطاهر البشتى

30	الاتجاهات الحديثة فى مفهوم التربيه	د. محمد التومى الشيبانى
31	من وحى رمضان	عبد النبى الربانى
32	التحوّل الاقتصادى فى الجماهيريه	محمد زيد
33	الفاتح ثورة الإنسان والحريه	جمعه المهدى الفزانى
34	الغد والغضب	خناتة بنونه
35	ذاكرة الكلمات	خليفه حسين مصطفى
36	خلجات إنسان	عيسى أيوب البارونى
37	كلمة فى قضايا الوطن والأمه	سالم والى
38	الاقليمية وغطاءاتها	تحسين عبد الحى
39	الإسلام ثورة مستمرّة	عبد العزيز كحلوت
40	إيقاعات على الغربة	على محمد عوده
41	الجماهيرية وانتصار عصر الجماهير	عبد الله بلال
42	ثورة صاحب العباءه	عبد الباسط القذافى
43	الصيام فى القرآن	محمد السيد دسوقى
44	دور التربية فى الوحدة العربيه	د. عمر التومى الشيبانى
45	المكتبة وجماهيرية الثقافه	مصطفى بديوى
46	الشعب المسلَّح	رياض سيف النصر
47	قراءات وتأملات فى الثقافة الشعبية	عمر المزوغى
48	الانفصال الحضارى	جمعه المهدى الفزانى
49	الغربان وجوقة الجياع	البوصيرى عبد الله
50	المسرح الذى نريده	محسن الخيّاط

51	أسرار القواعد البريطانية فى ليبيا	على شعيب
52	رموز الهزيمة فى الثقافة العربيه	فوزى الطاهر البشتى
53	صور من جهاد الليبيين بفلسطين	السنوسى شلّوف
54	الارهاب الامبريالى	محمد المصرى
55	فصائل الدم بين الطب والقضاء	د. ممدوح يوسف الجاسم
56	عرب البرازيل	عبد اللطيف بوكر
57	أواكس طروادة	فارس قويدر
58	تطور التعليم العالى فى ظل الحضارة الإسلامية	د. عمر التومى الشيبانى
59	الكيمياء والدواء	محمد فهمى زعتر
60	عبقرية العرب فى لغتهم الجميلة	د. محمد التونجى
61	الفجر فى عيون الشهداء	فوزى الطاهر البشتى
62	عروس الريف	عمر بلعيد المزوغى
63	أسس التنظيم السياسى فى النظرية العالمية الثالثة	د. أحمدعبد الحميد الخالدى
64	قصيدة البيت الواحد	خليفه محمد التليسى
65	أثر بعد عين	محمد أحمد وريّث
66	الخمر بين الطب والقضاء	د. ممدوح يوسف الجاسم
67	القرود	صادق النيهوم
68	دور التربية فى بناء الفرد والمجتمع	د. عمر التومى الشيبانى
69	ثورة الفلاحين	عبد الباسط عبد الصمد

70	وريقات مطوية	محمد الأسطى
71	القصة فى أدب عبد الله القويرى	أمين مازن
72	دراسات فى الرواية الليبيه	سمر روحى الفيصل
73	زمن القصه	خليفه حسين مصطفى
74	الثمن	عبد السلام أبو رقيبه
75	الشعر شهادة	أمين مازن
76	الحب/الموت. رجل وامرأة	سليمان كشلاف
77	الهنود البرازيليون	عبد اللطيف بوكر
78	مسرحيات بين النقد والتحليل	أحمد بشير عزيز
79	مبادىء التنمية والتخطيط الاجتماعى	د. على الحوات
80	كتابات على جدار الفن فى زمن الثورة	البوصيرى عبد الله
81	تعليم البنت فى الجماهيريه	أحمد محمد القماطى
82	مرُّ السحاب	د. على فهمى خشيم
83	الفرد فى دائرة المغامرة	رمضان سليم
84	أعندكم نبأ	محمد أحمد وريِّث
85	كلام فى القصة	أمين مازن
86	التربية والتنمية الريفية	د. عمر التومى الشيبانى
87	الرقابة الادارية كأداة للرقابة الشعبية	محمد عبد الله الفلاح
88	ملك يبيع أنفه (مسرحية)	عبد الباسط عبد الصمد

لم تشتهر شخصية في الآداب الشعبية مثلما اشتهرت شخصية جحا، حتى أصبح نموذجاً لضرب الأمثال ونادرة يتندرون بها في السهرات والسمرات، وهي غالباً ما تُعبِّر عن حالةٍ ما أو حكاية أو حادثة حدثت، إذ إن الأمثال الشعبية مرآة تنعكس عليها كثير من الصور، وتنطبع فيها حالات كثيرة.

هذا الكتاب هو مجموعة قصص وأمثال ونوادر وقفشات من الأدب الشعبي الليبي التي جاءت على لسان جحا.. أو التي صورت جحا سائلاً... أو مجيباً عن سؤال أو بطلاً لحادثة... أو هدفاً لنادرة... أو خارجاً من مأزق أو متورطاً في ورطة.



الثمن
300 درهم داخل الجماهيرية